الإيمان بالقضاء والقدر

٩١ سؤالاً و٩١ جواباً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

إن الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومُرّه ، أحد أركان الإيمان الستة في عقيدة الإسلام ، كما أن أركان الإسلام خمسة .

وعلى الرغم من الإيمان بالقدر لدى المسلمين ، إلا أن قضية القضاء والقدر أثارت في العقيدة والعقل شبكة من المسائل ، واختلف المسلمون في شأنها ، مع اتفاقهم على مضمون عناصر الإيمان الأخرى ، وأركان أو عناصر الإسلام ، واحتدم الجدل العلمي والنقاش الشديد بين الفرق الإسلامية ، في مسائل كثيرة متعلقة بالقدر .

وسبب الخلاف : أن عقيدة القضاء والقدر لها صلة وثيقة بالله تعالى ومقدراته ، وبمشيئته وإرادته وعلمه ، وهل الخالق هو مصدر السعادة والشقاوة ، وما معنى الإضلال والهداية ، وهل الإنسان مسيّر أو مخير ، وما حدود دائرة حرية الإنسان واختياره ، وهل نؤمن بالقدر ، وكيف يكون التكليف ومسؤولية المكلَّف ، وهل ترتبط أفعال الإنسان بمشيئة الله تعالى . وما فائدة التكاليف وإرسال الرسل ، وكيف يكون التسليم لله والرضا بقدره؟ وهل كل شيء بقدر ، وهل يمنع الحذر القدر ، وما معنى

التوفيق والهداية والخذلان الإلهي ، ولماذا وجد الشر ، وهل الحياة والموت والمصائب والأرزاق ونحوها بقدر الله ، وهل يمكن دفع القدر؟ وغير ذلك من الأسئلة المتكررة ، لذا صُغت الموضوع بصيغة السؤال والجواب ، وبلغت الأسئلة والأجوبة واحداً وتسعين سؤالاً وجواباً ، ليتمكن القارىء من فهم الموضوع وإدراكه .

والله أسأل العون والتوفيق ، حيث يجب على كل مسلم ومسلمة أن يدرك فحوى هذا الموضوع ، ليصح إيمانه ، ويسلم اعتقاده؟! وحتى لا يلقى الله إلا وهو عنه راضٍ بما فعل أو اعتقد ، بعد تبسيط هذا الموضوع ، وتجنب الاستطراد ، والحرص على الإيجاز .

* * *

١ـ ما معنى القضاء ؟ :

القضاء في اللغة : الحكم والصنع والخَلْق ، أو هو إتمام الشيء قولاً أو فعلاً أو إرادة ، قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] أي : حكم وأتم .

وقال سبحانه : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٢] أي : صنعهن وأتم خلقهن .

وقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] أي : حكم وأبرم .

وفي الاصطلاح الشرعي : هو إرادة الله تعالى الأزلية[١] ، المتعلقة بالأشياء ، على وفق ما ستوجد عليه في المستقبل ، كإرادته خَلْق الإنسان في الأرض . وهذا يلتقي مع المعنى اللغوي الذي هو إتمام الشيء .

٢ـ ما معنى القدر؟ :

القَدَر في اللغة : تبيين كمية الشيء وتقديره بقدر مخصوص . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] وقال سبحانه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] والقَدْر : اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر ، كالهدْم والنشْر والقبض ، أسماء لما صدر من فعل الهادم والناشر والقابض . وقَدَرَ وقَدَّرَ ـ خفيفة وثقيلة ـ : بمعنى واحد .

---

(١) أي القديمة بقدم الله تعالى .

وفي الاصطلاح الشرعي : هو إيجاد الله الأشياء على مقاديرها المحددة بالقضاء ، في ذواتها وصفاتها وخصائصها الزمنية والمكانية .

٣ـ ما الفرق بينهما؟ :

إن القضاء بمثابة التخطيط ، أو التصميم ، والقدر بمثابة التنفيذ ، ومرجع القضاء : هو الإرادة والعلم ، ومرجع القدر : هو القدرة والفعل . وعكس فريقٌ التعريف فجعل تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء .

قال الإمام النووي[١] :

واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ، ومعناه : أن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء في القِدَم ، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ما قدَّرها سبحانه وتعالى .

وقال ابن حجر : القضاء : علم الله أولاً بالأشياء على ما هي عليه ، والقدر : إيجاده إياها على ما يطابق العلم[٢] .

المعنى : أن القدر : هو تقدير الله للأشياء في الأزل بحسب علمه وإرادته ، أي بيان تحديدها من إيجاد كل شيء منها في زمن كذا ، وفي مكان كذا ، وعلى صفة مخصوصة ، بإثبات ذلك في اللوح المحفوظ ، لرواية مسلم والترمذي الآتية : « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

---

(١) شرح صحيح مسلم ١/ ١٥٤ .

(٢) فتح المبين بشرح الأربعين : ص٦٤ .

٤ـ ما وجه ارتباط القضاء والقدر بصفات الله تعالى ونظامه العام؟ :

إن المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الإيمان بالقضاء والقدر : هو أن العدل والرحمة والحكمة في أفعال الله وإرادته في المخلوقات أمور متحققة على أتم وجه وأكمل وصف ، وهذه الصفات واضحة في نظام الكون كله ، وفي تصرفات البشر ، كما ثبت في قوله تعالى : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل : ٨٨] وقوله سبحانه : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل : ٩٠] . وقوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] وقوله عز وجل : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

ونظام الكون قائم على قاعدة أو قانون السببية ، أي : ارتباط النتائج بالأسباب ، وليس القضاء والقدر سوى النظام العام الذي خلق الله تعالى عليه الكون ، وربط فيه بين الأسباب والمسبَّبات ، وبين النتائج والمقدمات ، فما يحدث في الخليقة يكون نتيجة لما سبقه ، وسبباً لوجود ما بعده ، سنة كونية دائمة لا تتخلف ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وكان من بين تلك السنة : أن خلق الله الإنسان حراً في فعله ، مختاراً غير مقهور ولا مجبور[١] ويسأل عن أفعاله ، ويتحمل نتائج أعماله .

٥ـ ما معنى الأحكام القضائية والأحكام القدرية؟ :

الأحكام القضائية : هي أحكام قاطعة تتعلق أزلياً بأشياء موقوتة يقدر لها بداية ونهاية ، كالخلق والتكوين ، والحياة والموت ، والتذكير

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت : ص٦٤ وما بعدها ، ط ثانية .

والتأنيث ، والغنى والفقر وغيرها . وقد استأثر الله تعالى بالعلم بها ، ولم يُطلع عليها أحداً من خلقه . وهذا القسم : من النظام الكوني العام لله تعالى في خلقه .

وأما الأحكام القدرية : فهي أحكام معلَّقة ومقدرة بشرط أو شروط لا تنفذ إلا بتوافرها ، وهي تتعلق بالأنظمة الكونية والسنن المطردة والقواعد الكلية ، والأعمال الإيجابية ، كالعمل لطلب الرزق ، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة .

وهكذا يتبين أن أمر الله تعالى بشيء لا يبطل قدره ، ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به ، من دعاء واستقامة ومداواة (علاج) ونحو ذلك . وهذا من قبيل دفع قضاء الله بقضاء الله ، كما فعل عمر رضي الله عنه بالهروب من بلد الطاعون[١] .

وعلم الله بالأشياء مجرد انكشاف واطلاع سابق على ما سيقع فعلاً ، وليس فيه أي معنى من معاني القهر والإلزام .

قال الخطابي : « وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبدَ ، وقهره على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه ، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدور أعماله عن تقدير منه ، وخلق لها خيرها وشرها »[٢] وسيأتي مزيد بيان لهذا .

وأضاف الخطابي قائلاً : والقدر : اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر ، يقال : قدَّرت الشيء وقدَرته ، بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد .

---

(١) كتاب الإيمان بالقضاء والقدر للأستاذ عبد الغني حمادة : ص٢١ ، ٢٧ .

(٢) شرح مسلم للنووي : ١/ ١٥٤ وما بعدها .

والقضاء في هذا معناه الخلْق ، كقوله تعالى : ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت : ١٢] أي : خلقهن في يومين .

٦ـ ما حكم الإيمان بالقضاء والقدر؟ :

اتفق علماء الأمة الإسلامية (أهل السنة والجماعة) على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، قال الإمام النووي : وقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة ، وإجماع الصحابة ، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى[١] .

والأدلة على ذلك كثيرة منها :

أولاًـ ثبوت اتصاف الله تعالى بصفة الإرادة والعلم والقدرة ، فالقضاء فرع عن ثبوت صفة الإرادة والعلم لله عز وجل ، والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له تعالى .

ثانياًـ ورود النصوص الكثيرة في السنة النبوية ، التي توجب الإيمان بالقدر ، منها[٢] : حديث عمر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[٣] .

ـ وحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدرِ خيره وشره ، وحتى

---

(١) المرجع السابق : ص١٥٥ .

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ١٠/ ٥١١ـ٥١٣ .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي . وله لفظ آخر رواه البيهقي في شعب الإيمان .

يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه »[١] .

ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بالقدر نظام التوحيد »[٢] وفي لفظ آخر : « الإيمان بالقدر يذهب الهمَّ والحزن »[٣] .

ـ وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، فقال : يا رب ، وماذا أكتب؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »[٤] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥] : كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، « فأول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، قال : ما أكتب؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفَّت الأقلام ، وطُويت الصحف ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] . وقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

ـ وحديث الإمام علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني محمد

---

(١) رواه الترمذي . وله روايات أخرى ، منها ما أخرجه أبو داود عن ابن الديلمي رحمه الله .

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس .

(٣) رواه الحاكم في تاريخه والقضاعي .

(٤) رواه أبو داود والترمذي .

(٥) مجموع الفتاوى الكبرى : ٣/١٤٨ وما بعدها .

رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، وبالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر »[١] .

ـ وجاء في حديث عبادة المتقدم عن أبي داود : « يا بني ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات على غير هذا فليس مني » .

٧ـ ما المراد بالإيمان بالقدر؟ :

المراد بوجوب الإيمان بالقضاء والقدر : هو أن يؤمن المسلم بأن الله تعالى عَلِم منذ الأزل بجميع أفعال العباد وسائر المخلوقات ، التي تحدث في المستقبل ، وأنه تعالى يوجدها بحسب القدر المخصوص الذي سبق العلم به .

وقد ثبت بالكتاب والسنة كما تقدم وإجماع الأمة : أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان ، وأنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الله بكل شيء عليم ، وأنه سبحانه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وأن الأمور كلها بخلْقه وقدرته وتدبيره .

ودلت الأحاديث السابقة على ما يلي[٢] :

ـ فرض الإيمان بالقدر .

ـ وبيان كيفية الإيمان به .

ـ وإحباط عمل من لم يؤمن به .

ـ والإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٢) كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب : ص١٧٤ـ١٧٥ ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : ص٤٧٨ـ٤٧٩ .

ـ وذكر أول ما خلق الله وهو القلم .

ـ وأنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة .

ـ وبراءته ﷺ ممن لم يؤمن به .

وقال ابن تيمية[1] : تؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره ، والإيمان بالقدر على درجتين ، كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى علم بما الخلق عاملون بعلمه القديم ، الذي هو موصوف به أزلاً ، وعلم جميع أحوالهم ، من الطاعات والمعاصي ، والأرزاق والآجال .

ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، كما جاء في الأحاديث السابقة .

وأما الدرجة الثانية : فهي مشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات . فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه ، لا خالق غيره ولا رب سواه .

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ، ونهاهم عن معصيته .

٨ـ هل علم الله بالأفعال يؤثر في الاختيار؟ :

العلم بالشيء : صفة انكشاف واطلاع على الشيء ، لا دخل له ولا تأثير في إيجاد الأفعال والتصرفات أو إعدامها وتركها ، فعلم الله الخالق

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/١٤٨ـ١٤٩ .

بالأشياء والأفعال في الأزل مجرد كشف الحقيقة والواقع ، على ما سيكون عليه حال الإنسان وواقعه وأوضاعه ، وعلى ما تكون عليه الأمور ، أو ما ستوجد عليه ، دون أن يكون له تأثير في إيجاد الشيء أو إعدامه ، ولا علاقة للعلم بالجبر والاختيار .

وعلم الله يتناول الواجب عقلاً ، والمستحيل عقلاً ، والممكن عقلاً ، سواء كان من الحقائق الإيجابية ، كفعل الشيء ، أو من الحقائق السلبية ، كترك الشيء .

وإذا تعلقت إرادة الله بإيجاد شيء ممكن في زمن معين أو مكان معين ، علم الله تعالى أنه سيوجد حتماً على النحو الذي أراده الله تعالى ، مهما بعد الزمن ، لأن القريب والبعيد في علم الله تعالى سواء ، ويعلم الله بالماضي والحاضر والمستقبل ، مما هو كائن أو غير كائن ، وما سوف يكون أو لا يكون على السواء أيضاً .

وعلم الله لا تأثير له في إيجاد الشيء أو إعدامه ، فإذا أراد الله تعالى إيجاد شيء أو إعدامه ، اختار وجوده ، فتتعلق صفة القدرة فيه ، فتنفِّذ القدرة ما اختارته الإرادة ، فيوجد الشيء على الصفة أو الصورة المرادة أو المخصصة بأوصاف معينة ، وهذا يعني إيجاد الشيء الممكن عقلاً وخلْقه .

ولكن كل ذلك لا يقتضي إجبار الإنسان أو إكراهه على تحصيل الشيء أو كسبه وتحقيقه ، ويظل مختاراً في هذا التوجه إلى الفعل ، خيراً فيفعله أو يتركه ، أو شراً فيتركه ، أو يفعله ، وبموجب أو مقتضى هذا الاختيار الإنساني لفعل الشيء أو تركه ، تكون المسؤولية أو الحساب ، والثواب أو العقاب ، على تنفيذ التكاليف الشرعية الحسنة ، وترك الفواحش والشرور ، والمضارّ والسيئات ، أو ارتكابها واقتحامها .

والخلاصة : علم الله تعالى شامل لجميع المعلومات ، وقدرته وإرادته يعمَّان سائر الممكنات ، ولكن لا صلة لذلك بإجبار الإنسان أو مصادرة حريته أو حجب اختياره أو إعمال إرادته .

٩ـ من خالق أفعال الإنسان؟ :

مذهب أهل السنة بالاتفاق : أن الله تعالى خالق جميع أفعال الإنسان الاضطرارية ، كانتفاضة الحمى وحركة القلب والمعدة وحركة المرتعش ، وجميع أفعال الإنسان الاختيارية خيرها وشرها ؛ كتناول الطعام والشراب ، والدراسة ، والمشي ، والقيام والقعود ، وأداء العبادات ، وترك المحرَّمات ، وسائر التصرفات من طاعة أو معصية ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ولو لم يكن ذلك بخلق الله وقدرته ، لما اتصف بالكمال ، ولكان الفعل بتأثير مستقل من غير الله ، وهو محال على الله تعالى ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] وقوله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

لكن خَلْق الشيء وإيجاده كخلق القدرة على رفع اليد ووضعها ، أو البناء أو الهدم ، ونحو ذلك لا يعني أن الإنسان مكره على الفعل ، فالخلق أو التكوين شيء ، وتوجه إرادة الإنسان نحو تحقيق الفعل شيء آخر ، أما الخلق فهو بيد الله وقدرته ، وأما توجيه اليد نحو الإشارة للخير أو الكتابة أو تناول الطعام ، أو الضرب أو نحو ذلك ، والعزم أو القصد لتنفيذ الفعل ، فإنما يكون باختيار الإنسان وإرادته ، فيكون فعل الإنسان مخلوقاً لله تعالى إبداعاً وإحداثاً ، ومكسوباً للإنسان .

وتكون المسؤولية أو المقاضاة والمحاسبة على القصد والكسب[١] الصادر من الإنسان ، لا على مجرد الخلق نفسه ، أو التمكين من مباشرة الوسائل والأسباب ، فإن الخلق أو إيجاد الفعل شيء مستقل بذاته عن توجيهه أو كسبه من الإنسان ، أي : العزم عليه وتنفيذه ، فلا مؤاخذة على مجرد النية ، وإنما المؤاخذة على ممارسة الفعل أو القول .

وتكون إرادة الإنسان في تحصيل الأشياء والأفعال بمثابة توجيه الرادار أو إضاءة مفتاح الكهرباء ونحو ذلك ، إن الذي خلق هذه المصنوعات هو الله وهو الذي ألهم الإنسان بصناعتها ، ولكن توجيه الرادار باكتشاف جهة من غيرها يتم بفعل الإنسان ، وإضاءة المصباح أو إطفاؤه يحدث أيضاً بفعل الإنسان ، وتكون المسؤولية محصورة في فعله الاختياري ، وإن كان الله هو الذي خلق سر الإرادة في الإنسان ، أما توجيه هذه الإرادة يميناً أو شمالاً مثلاً ، فهو باختيار صاحب الإرادة ، وكذلك تحقيق النتائج إنما يتم بخلق الله خالق كل شيء ، هذا في مجال الأفعال والمساعي الاختيارية .

أما الأفعال القسرية التي تقع على الإنسان قهراً عنه ، كإلقاء النوم أو تسليط النعاس عليه ، وتعرضه للموت أو الحادث المفروض عليه من سيارة ونحوها ، أو سقوط شيء عليه من سطح مثلاً ، فهي لا سلطان ولا إرادة ولا اختيار للإنسان عليها ، ولا يكلف بها ، ولا يسأل عنها ، ولا يثاب أو يعاقب عليها .

ومحل الطاعة أو المعصية : إنما هو في الأشياء والأفعال الاختيارية ، والله تعالى أمر بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ، ويحبُّ الله

---

(١) الكسب : هو مقارنة وجود الفعل لقدرة الإنسان واختياره ، من غير أن يكون هناك تأثير منه أو مدخل في وجوده ، سوى كونه محلاً للفعل .

الطائعين ويرضى عنهم ، ولا يحب الكافرين والفاسقين ولا يرضى عنهم ، ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد[١] .

١٠ـ هل يعارض أحد في قدرة الله على خلقه الأفعال؟ :

عقيدة أهل السنة والجماعة ـ كما تقدم ـ أن الله هو خالق أفعال العباد الاختيارية ، خيرها وشرها ، وأن الله تعالى قدَّر الأشياء في الأزل (القدم) وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ما قدرها الله تعالى . وأهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ويضيفون القدر والأفعال إليه تعالى ، وليس للإنسان إلا الكسب والتحصيل وليس مجبوراً عليها كما يقول « الجبرية » . ومثال ذلك : أن القتيل بفعل قاتل يموت بأجله ، أي : عند انتهاء الأجل ، والاعتداء يكون مجرد سبب يحدث في لحظة مفارقة الحياة .

لكن وجدت فرقة تسمى « القدرية » ولا وجود لها الآن ولله الحمد ، يرون مع « المعتزلة » أن الإنسان خالق لأفعاله الاختيارية ، وأنكروا أن الله تعالى لم يقدرها ، ولم يتقدم علمه بها ، وأنها مستأنفة العلم ، أي : إنما يعلمها الله سبحانه بعد وقوعها ، وسميت هذه الفرقة « قدرية » لإنكارهم القدر ، وجحودهم كمال قدرة الله تعالى .

وقد أخبر عنهم الرسول ﷺ ، فقال ـ فيما رواه أبو حازم عن ابن عمر ـ : « القدرية مجوس هذه الأمة »[٢] شبههم بالمجوس القائلين

---

(١) الفتاوى لابن تيمية : ٣/ ١٤٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، والحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين ، =

بإلهين : هما النور والظلمة ، والخير من فعل النور ، وينسب إلى « يزدان » والشر من فعل الظلمة ، وينسب إلى « أهرمن » فصاروا « ثَنَوية » .

وكذلك القدرية ـ كما قال الخطابي ـ يضيفون الخير إلى الله تعالى ، والشر إلى غيره ، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعاً ، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته ، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً ، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً[١] .

وهذا الاعتقاد خطأ كبير ، لأن الله تعالى المهيمن على الكون كله ، هو خالق كل شيء ، سواء كان خيراً أو شراً ، فهو الذي يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير ، ولا يقع شيء في الكون المملوك لله إلا بإرادته وخلقه ، وإن صاحَب ذلك أو قارنَه فعل الإنسان ، دون أن يكون لإرادة أحد وعمله تأثير في تحقيق النتائج .

قال ابن تيمية رحمه الله : العباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد : هو المؤمن والكافر ، والبَرّ والفاجر ، والمصلي والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٨ـ٢٩] .

لكن القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة : ينكرون مشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ويسلبون العبد قدرته واختياره ، ويُخْرجون عن أفعال الله وأحكامه حِكمَها ومصالحها[٢] .

= وقال : صحيح على شرط الشيخين ، إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر .

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ١٥٤ .

(٢) الفتاوى الكبرى ٣/ ١٥٠ ، وانظر أيضاً تهذيب مدارج السالكين لابن القيم =

وهم محجوجون بما يثبت القدر . وكذلك المعتزلة نفاة القدر يرد عليهم بصريح الأحاديث السابقة المشتملة على الوعيد الشديد بسبب نفي القدر .

١١ـ هل في القدر شر؟ :

نؤمن كما تقدم بالقدر خيره وشره ، وهذا يعني أن القدر يشتمل على الأمرين : الخير والشر ، والمراد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء ، خير أو شر ، وكل ما يقع في الكون فهو بمشيئة الله ، وإن كان الله لا يحب الشر ولا يرضاه ، ولا يأمر به ، لكنه تعالى خلقه وأوجده ، لتقرير سُنَّة محكمة : وهي تحقيق التكامل في الكون ، ولأن الأشياء تعرف بأضدادها ، ولاختبار الناس بما يختارون .

إن الله خلق الخير والشر ، لما له في ذلك من الحكمة ؛ التي باعتبارها كان فعله حسناً متقناً ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] وقال سبحانه : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [النمل : ٨٨] .

ولكن وإن كان الله هو الخالق للخير والشر ، والحسن والقبيح ، فينسب الخير إلى الله ، والشر إلى أنفسنا تأدباً ، ولا يضاف إلى الله تعالى الشر مفرداً ، بل إما أن يدخل في العموم ، وإما أن يضاف إلى السبب ، وإما أن يحذف فاعله .

مثال الأول : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ ﴾ [الزمر : ٦٢].

ومثال الثاني : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق : ١ـ٢] .

ومثال الثالث : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] .

= ١/ ٣٤١ ، ط إيران .

والقدر في ذاته في الحقيقة لا شرّ فيه بوجه من الوجوه ، وإنه علم الله وقدرته ، وكتابته ومشيئته ، وذلك خير محض ، وكمال من كل وجه ، ليس إلى الرب تبارك وتعالى بوجه من الوجوه ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدَّر ، ويكون شراً بالنسبة إلى محل ، وخيراً بالنسبة إلى محل آخر ، وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه ، بل هذا هو الغالب .

يرى الإنسان مثلاً أن ما يصيبه في ذويه من موت أو حادث مزعج هو شر ، والواقع أنه خير للبشرية موت جماعة ، وحياة آخرين ، وقد يرى الإنسان أن رفض تسلمه وظيفة أو منصباً ، أو عدم توفيقه في سفر ما : هو شر له الآن ، ثم يتبين أن ذلك المنصب وبال ، أدى بصاحبه إلى القتل أو السجن ، وأن تأخره عن الطائرة في سفر مثلاً ، كان خيراً ، لأن الطائرة في تلك السفرة تحطمت أو اختطفت ، فتكون النتيجة خيراً إما للمجموع ، وإما للإنسان ذاته ، وإما لحال دون حال .

١٢ـ هل يجب على الله تحقيق المصلحة لعباده؟ :

يرى أهل السنة والجماعة أنه لا يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح لأحد من عباده ، لأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقِّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه .

ولأنه لو وجب عليه تعالى الأصلح لعباده ، لما خلَق الكافر الفقير المعذَّب في الدنيا والآخرة ،ولا سيما المبتلى بالأسقام والآلام والمحن والآفات . ولو كان فعل الأصلح واجباً على الله ، لم يستوجب عليه شكراً ، لكونه مؤدياً للواجب عليه ، كمن يرد وديعة أُودعها ، وكمن

يؤدي ديناً لزمه ، مع أنه سبحانه قد طلب من عباده أن يشكروه على ما فعل معهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

لكن المعتزلة[١] قالوا : « فعل الصلاح والأصلح واجب على الله تعالى للعباد » والصلاح يقابل الفساد ، كالإيمان في مقابلة الكفر ، والأصلح وهو الأقوى والأشد في الصلاحية يقابله الصلاح ، فإذا كان هناك أمران أحدهما صلاح ، والآخر أصلح منه ، وجب على الله تعالى أن يفعل الأصلح منهما ، دون ما هو صلاح . ودليلهم قول الله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ١٢] . وآية أخرى في السورة نفسها الآية ٥٤ : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ .

ومرادهم : أنه يجب على الله تعالى إقدار العبد وتمكينه ، وأن يفعل معه أقصى ما يمكن في معلومه سبحانه ، حتى يؤمن الإنسان ويطيع ، وأنه سبحانه فعل مع كل أحد غاية مقدوره من الأصلح .

ويرد عليهم : بأن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة والعدل والرحمة ، وقد نرى الحكمة في فعل شيء ، والخير في الضد من ذلك ، وحكمة الله تعالى بالغة ، بعيدة الأثر ، ذات آفاق مستقبلية ، لا تعلم إلا في الآخرة ، أو في الدنيا أحياناً .

قصة رمزية : وهذه قصة رمزية أو مناظرة ترد عليهم : ثلاثة إخوة ، مات أحدهم كبيراً طائعاً ، ومات الثاني كبيراً عاصياً ، ومات الثالث صغيراً .

قال أبو علي الجبائي : الأول يثاب بالجنة ، الثاني يعاقب بالنار ، والثالث لا ثواب له ولا عقاب (منزلة بين منزلتين) بتعبيرهم .

---

(١) ويأخذ الشيعة الإمامية ، والإباضية في وقتنا الحاضر برأيهم .

فاعترض سُنّي قائلاً : فإن قال الثالث : يا رب لِمَ أمتني صغيراً ، ولمْ تبقني حتى أبلغ ، فأطيعك ، فأدخل الجنة؟ .

فقال الجبائي : يقول له ربه : علمت أنك لو كبرت عصيت ، فتدخل النار ، فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً .

فقال السُّني : فإن قال الثاني : يا رب ، لما علمتَ أني إن كبرت عصيت ، فدخلت النار ، فلِمَ لم تمتني صغيراً ، حتى أكون كأخي؟ ماذا يقول الرب؟ فبهت الجبائي[1] .

والحق أنه لا يصح قياس الغائب على الشاهد الذي اعتمد عليه المعتزلة ، أي : قياس أفعال الله على أفعال أو منطق العباد ، لقصورنا عن إدراك المعارف الإلهية ، وصفات الواجب الحق ، وأفعال الغني المطلق ، ولأنه لو وجب عليه سبحانه الأصلح ، لما بقي للتفضيل بين الناس مجال ، ولم يكن له تعالى مطلق الاختيار في الإنعام ، وهو باطل ، لقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] . وقوله سبحانه : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٧٤] .

١٣ـ كيف يكون الإنسان مخيراً ، والله خالق لكل شيء؟ :

عرفنا أن الله تعالى خالق كل شيء ، ومنها أفعال الإنسان ، وتبين لنا أن الإنسان مخيّر في أفعاله الاختيارية أو الإرادية ، فيكون مكلفاً ومسؤولاً عن أفعاله .

وخلق الله للأشياء : خلْق للآثار الناجمة عن إرادة الإنسان الحرة ، وممارسة الإنسان حريته في الحدود المسموح له بها يجعله سبباً ومؤثراً في

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٨٤ ، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٣٥٦ .

إيجاد نتائج أعماله التي يباشرها بإرادته ، فكيف يوفق بين خلق الله للأشياء وآثارها ، وبين كون الآثار صادرة عن إرادة البشر؟ .

والجواب : أن الإنسان يمارس السبب الظاهري الذي يدل على كونه طائعاً أو عاصياً ، فهو المحرِّك للسبب أو العازم عليه والمباشر له ، وأما السبب الحقيقي المؤثر بذاته فهو الله الخالق ، الذي يرتِّب النتائج بخلقه كل شيء ، فيقترن السببان ، ويعلم الله تعالى المحيط علمه بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل ، اتجاهَ إرادة الإنسان مع اتجاه إرادة الله وقدرته ، لكن هذا العلم لا يؤدي للإكراه والإجبار .

١٤ـ ما موضع إرادة الإنسان مع إرادة الله تعالى؟ :

إن إرادة الإنسان واختياره تعمل في ظل إرادة الله تعالى وقدرته ، ومن جملة ما أراده الله : أن تكون هناك إرادة للإنسان ، فلا يقع تعارض بين إرادة الله تعالى ، وبين ما يختاره الإنسان بإرادته الخاصة ، ليمتحنه ويختبره في الحياة الدنيا ، ولا تتم مباشرة الفعل للتصرف من قبل الإنسان بشيء من القسر والإكراه ، وإنما من طريق غرس إرادة الله عز وجل في كيان الإنسان ، وكسب هذا الإنسان بموجب بث سر الإرادة والاختيار فيه ، للعمل الذي يعمله أو يحبه ، دون قسر أو إكراه .

والمعنى : أن إرادة الله تعالى تعلَّقت بأن يكون الإنسان مريداً ، فسرت إرادة الله تعالى ، إلى ما يريده الإنسان ويختاره من الأفعال ، فيستحق ثواب الله أو عقابه . وبه يتبين أنه لا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يشاء ويريد ، وأن الله تعالى أعطى الإنسان أيضاً إرادة ومشيئة ، ولا تناقض أو تعارض بين الإرادتين ، كما لا تعارض أيضاً بين علم الله الشامل بالأشياء ، وبين الجزء اليسير من العلم الذي أعطاه الله للإنسان .

والدليل البيِّن لهذا التوافق بين الإرادتين قول الله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان : ٣٠] .

١٥ـ ما مدى حرية الإنسان؟ :

ليست كل حرية للإنسان مطلقة لا حدود لها ، فكل حرية لها قيود ، الحرية في بلد أو دولة تخضع لنظام هذه الدولة ، والحرية في المشي في الشوارع مقيدة بنظام المرور والآداب العامة ، والحرية في تحصيل العلم والمال من تجارة وزراعة وصناعة وغيرها من وسائل الاكتساب مقيدة بنظام المدارس والجامعات ، وقوانين الاقتصاد والحرف المهنية والخدمات .

وكذلك حرية الإنسان تجاه القضاء والقدر والقيام بالتكاليف الشرعية من عبادات وغيرها ، وترك المنهيات والمنكرات مقيدة ضمن دائرة كبرى ، لا يستطيع الإنسان تجاوزها ، فالله تعالى وهبنا العقل والإرادة لاختيار الطريق الأقوم في حدود إرادة الله وقدرته .

إن سلطان القضاء والقدر ونظام الكون والخليقة في الدائرة الكبرى لا يمكن لأحد تجاوزه ، كنظام الحياة والموت ، والمواهب العقلية ، والصحة والمرض ، والرزق والتوفيق ، والنصر والخذلان ، والعز والذل ونحو ذلك ، لا اختيار لنا ولا سلطان لنا في هذه الدائرة الكبرى ، وما علينا إلا الرضا به إن كان طاعة ، وإنكاره إن كان معصية ، وإنما اختيارنا وإرادتنا فيما مكَّننا الله تعالى فيه ، ومنحنا الإرادة في تحصيله وكسبه ، أو إهماله وتركه .

لقد أمرنا الله تعالى بطاعته فيما كلَّفنا به من التكاليف الشرعية ، من عبادات وأنظمة أسرة ، ومعاملات ، ومواريث ، وجهاد ونحوها ،

ووهبنا العقل والقدرة المعتادة (التي لا يشق على النفوس تحملها) على مباشرتها وتنفيذها ، ونهانا عن المنكرات والفواحش من القتل العمد والزنىٰ والربا والسرقة والغصب والغش ونحو ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، ومنحنا الحرية والإرادة في تجنبها ، فنثاب على الطاعات ، ونعذب على المعاصي . وقد دلت آيات كثيرة على حرية الإنسان ، منها : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ومنها : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٩] .

والخلاصة : إن حرية الإنسان ثابتة فيما هو داخل تحت إرادتنا وقدرتنا ، ومعدومة فيما هو خارج عن نطاق إرادتنا ، فنسأل عن الأول الممكن المقدور عليه ، ولا نسأل عن الثاني المعجوز عنه .

١٦ـ ما الحكمة في الإيمان بالقضاء والقدر؟ :

الإيمان بالقضاء والقدر على عكس تصور العوام : قوة إيجابية دافعة إلى العمل وبناء المستقبل ، وليس لتثبيط الهمم ، والقعود عن العمل ، والخلود إلى الكسل ، والوقوف عند أحداث الماضي .

إن الإيمان بالقضاء والقدر يخلّصنا من أعباء الماضي وسلبياته ، والوقوع فريسة الأحزان والمآسي ، فإذا ما اصطدم الإنسان بشيء ، أو بموقف مزعج ، أو بإخفاق في مشروع أو عمل أو وظيفة ، أو صدّ أو رفض أو إهانة أو إذلال وسخرية ، تخطاها وبحث عن فُرَص أخرى كثيرة سواها ، بدليل صريح آي القرآن ، ومنها :

ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] .

ـ ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

فالاستكانة والرضا بالمذلة سبيل الضعفاء ، وغير المؤمنين ، أما المؤمن فيتغلب على الصعاب بهمة عالية ، وعزيمة ماضية ، لا تعرف التردد والانزواء ، قال النبي ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من الضعيف ، وفي كلٍّ خير[١] ، احرص على ما ينفعك ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء[٢] ، فلا تقل : لو أني فعلت كذا ، كان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[٣] .

إن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تعلِّم الإنسان أموراً كثيرة ، منها : التعرف على سنة الله في خلقه ، وأنها قائمة على الحكمة والعدل والرحمة ، فلا ينسى الله تعالى أحداً من فضله وإحسانه .

ومنها : التعرف على قانون السببية ، أي : ربط النتائج أو المسبَّبات بالأسباب والمقدمات ، وبخاصة مسائل الرزق أو الغنى والفقر ، والصحة (العافية) والمرض ، وعلو المنصب أو الجاه ودنوّه ، والعزّ والذل ، والنجاح والخيبة أو الفشل ، وانتزاع الاحترام من الآخرين أو الانتكاس والمهانة ونحو ذلك .

وهذا يتطلب منا ممارسة الأسباب والأخذ بها ، دون الاتكال على الصدفة ، وانتظار الرحمة أو المعونة من الآخرين[٤] .

---

(١) أي : في الاشتراك بأصل الإيمان .

(٢) أي : خلاف المراد .

(٣) رواه مسلم في صحيحه .

(٤) قال ابن تيمية في فتاويه ٨/ ٤٣٠ : إن جماهير المسلمين يخالفون القدرية من المعتزلة وغيرهم ، وجماهير المسلمين أيضاً يقرون بالأسباب التي جعلها الله أسباباً=

ومنها : التخلص من سلاسل الماضي ، والوقوع في آفات المآسي والأحزان ، والانطلاق في مجالات العمل والبناء ، فإذا أصيب الإنسان بمصيبة أو تعرَّض لسوء أو ضرّ ، فإنه لا يجزع ، وإذا نجح وظفر ، فإنه لا يبطر ولا يغتر ولا يتكبر ، ولا يتحمل إنسان تبعة خطيئة غيره ، فكل إنسان مسؤول عن نفسه ، قال الله تعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٢ـ٢٣] .

ومنها : أن الأمة إذا تعرضت لنكسة (نكسة حزيران ١٩٦٧ مع إسرائيل مثلاً) أو هزيمة ، كهزيمة المسلمين في معركة أحد في عهد النبوة ، درست أسباب الحادثة ، وحذرت من درس الهزيمة ، وخططت لظفر أمتن وأحكم . وذلك كما قال الله تعالى :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] قال سبحانه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٦] .

وهذا يعلِّمنا دائماً أن ننسب الخير إلى الله تعالى ، والشر إلى أنفسنا أدباً مع الله تعالى . وذكر الغزالي أصلين لدواعي الرضا بالقضاء :

أحدهما ما في الرضا بالقضاء من الفائدة في الحال والمآل . أما الفائدة الحالية ففراغ القلب من الهموم ، وأما الفائدة ، في المآل : فثواب الله تعالى ورضوانه .

= في خلقه وأمره ، ويقرون بحكمة الله ـ التي يريدها ـ في خلقه وأمره .

والثاني ـ ما في السخط من عظيم الضرر والخطر والكفر والنفاق ، إلا أن يتداركه الله[١] .

١٧ـ هل الإنسان مسيَّر أو مخيَّر؟ :

الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعةِ ـ وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية[٢] ، فهم لا يقولون بأن الإنسان مجبور على أفعاله ، كالريشة المعلَّقة في الهواء ، تقلّبها الريح كيف شاءت ، وهؤلاء هم الجبرية الذين يقولون بالجبر مطلقاً ، ولا يقولون خلافاً للقدرية والمعتزلة : إن الإنسان قادر ، خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، ويفعل في رأي المعتزلة أفعاله باختياره ، له فعلها وله تركها ، أي : يقولون بالاختيار المطلق .

وإنما تقول هذه الفرقة : الله هو الخالق لأفعال العباد خيرها وشرها ، وللعبد اختيار مقيد ، وإرادة مقيدة ، فللإنسان إرادة غير مطلقة ، أي : إرادة مقيدة بقيود ، فهو مختار في قالبِ مجبور ، كراكب في سفينة ، يتحرك فيها كيفما يشاء ، ولكنه مجبور هو وسفينته بعوامل خارجية ، وكذلك الإنسان في سفينة الوجود . وتوضيح ذلك فيما يأتي :

ـ إن الله تعالى هو الذي يخلق الخير ويخلق الشر ، وإن الإنسان حر مختار ، فهو إما أن يختار الخير ، أو يواقع الشر .

ـ إن أفعال الإنسان الاختيارية الخاضعة لإرادته وإمكانه ، من دراسة وبحث ، واحتراف يدوي من زراعة وصناعة وتجارة ، وقيام وقعود ، وتناول طعام وشراب ، ونحو ذلك مخلوقة لله تعالى ، لاتصافه بصفات

---

(١) منهاج العابدين : ص٢٣٦ وما بعدها .

(٢) مجموع الفتاوى للإمام ابن تيمية : ٣/ ١٤١ .

الكمال ، يكتسبها الإنسان ، أي : يجتنيها ويحصلها بقصد منه[١] ، ويكون بسبب هذا الكسب إما مثاباً على الطاعة ، أو معاقباً على المعصية .

أما الأفعال القَسْرية : وهي التي يتعرض لها الإنسان بدون إرادته ولا اختياره ، كالنوم واليقظة ، وحركة الارتعاش والموت ، والمرض والحوادث والمصائب ونحو ذلك ، فهي أيضاً من خلق الله ، ولكن الإنسان مجبور عليها ومسيّر ، ولا يسأل عنها ، وإنما يثاب على الرضا بها ، فإن لم يرض بها سخط الله عليه ، لأن من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، ويظهر الفرق بين نوعي الأفعال بالتمييز بين حركة الارتعاش مثلاً ، وحركة المشي والكتابة ونحوهما من الأعمال .

ـ إن خلق الله تعالى للأفعال الاختيارية التي يختارها الإنسان ، لا يستلزم أن يكون مكرهاً عليها ، ولا مجبوراً بها ، وإنما يختارها الإنسان ضمن حدود سلطان القضاء والقدر في خلق الأشياء .

ـ في مجال الأفعال الاختيارية : يكون التكليف الإلهي لعباده ، من الأمر بالطاعة ، والنهي عن المعصية ، فمن نفَّذ الأمر الإلهي ، كان طائعاً مثاباً على طاعته ، ومن عصى النواهي الإلهية ، كان عاصياً معاقباً على معصيته .

فالإنسان مطالب بالعمل بمقتضى التوجيه الإلهي الوارد عن طريق الرسل والكتب السماوية .

ـ ما قد يكون من مؤثرات بيئية أو اجتماعية أو تربوية : صحيح أن لها تأثيراً ، توجه إرادة الإنسان ، ولكنها تتطلب مجاهدة النفس للتخلص من تأثيراتها ، وهي مهما بلغت من القوة والتأثير لا تعدم الإرادة والاختيار ،

---

(١) الكسب : قصد الشيء والعزم على فعله ، فهو أخص من القصد ، لأنه قصد الشيء وإنجازه ، وأما القصد فقد يقترن بالإنجاز وقد لا يقترن .

والتمكن من التخلص منها بأساليب أو حيل مختلفة ، أو أعذار منحولة ، أو مصارحة جريئة .

ـ العلم الإلهي بوقوع الشيء على نحو معين : صفة كاشفة لا تؤثر في المعلوم ، إيجاداً أو إعداماً ، كما تقدم ، ويظل الإنسان مختاراً اختياراً يسيراً يسمى بالجزء الاختياري .

ـ لا علاقة للإنسان بما علم الله ، وأراد في خلقه مما سجَّله في اللوح المحفوظ ، على وفق ما اطلع عليه سلفاً من سلوك الإنسان في الحياة ، وعلم الله محيط بكل شيء ، لأن العلم بالحادثة لا يقتضي الإكراه والإجبار عليها ، كما تقدم بيانه . وعبارة العلماء في هذا : « إن الله علم ما سوف تختاره لنفسك من الأعمال والأقوال ، فكتَبَه عليك » أي : سجّله أو دوّنه ، لا فرضه وألزمه . وإنما خلق الله الإنسان حينئذ لإقامة الحجة الحسية عليه من عمله .

ـ لا يعترض بأن الله تعالى هو الذي خلق لكل إنسان قدرته على ممارسة الأفعال ، لقوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] لأن توجيه هذه القدرة نحو اتجاه معين خاضع حساً وعقلاً وعدالة لإرادة الإنسان ، بما وهبه الله تعالى ، من عقل وتمييز وإدراك واختيار ، وقدرة وإرادة يباشر بها أعماله ، وإلا فليس من العدل الحساب على شيء ، فصحة التكليف مرهونة إذاً بالاختيار ، كما أن الحساب والعقاب منوطان به أيضاً .

وهذا هو الشأن في كل ما نشاهده في الحياة من طبائع الأشياء والاختراعات ، فموادُّها الأولية يمكن استخدامها في سبل الخير ، كما يمكن تحويلها نحو الشر والإفناء والدمار ، لذلك كانت عقيدتنا هي أن الله تعالى منح الإنسان قوة على الفعل ، ومشيئة تتوقف عليها أعماله التي

فعلها باختياره ، والتي تقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان ، لقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

والخلاصة : إن ممارسة الإنسان لإرادته وحريته ، واختياره الهداية أو الضلال ضمن دائرة معينة ، وفي حدود استطاعة محددة ، وعملاً بوظيفة العقل وتشريع الشرائع الإلهية ، لا تمنع كونه خاضعاً لسلطان الله العام ، وإرادته المهيمنة على كل شيء ، أو أنه يسير ضمن الدائرة الكونية الكبرى ، أو السنة الأبدية في الخلق ، أو ضمن الإطار العام لمنهجها ، أو النظام العام لفكرتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أو أن الإنسان كمن يتنقل في رياض حديقة مسوَّرة ، فهو لا يستطيع تجاوز السور ، ولكنه يستطيع اختيار ما يقطف من ثمار الحديقة ، أو يشمّ من رياحينها أو يأخذ من ورودها ، أو على العكس يقحم نفسه في أشواكها والتعرض لهوامها الأرضية .

وحينئذ ، لا يظهر هناك مجال للتعارض أو التناقض في إرادات الله التي تحقق تكاملاً ووحدة منسجمة للوجود كله ، وقد لا نتمكن من التعرف عليها ، أو إدراك أسرارها ، إذ لا يظهر سرّ القدر إلا في المحشر أو يوم القيامة .

١٨ـ هل للإنسان إرادة مع إرادة الله؟ :

للعلماء آراء ثلاثة في هذا : رأي الجبرية ، ورأي المعتزلة ، ورأي أهل السنة .

قال الجبرية : ليس للعبد إرادة مطلقاً ، فما لا يفعله لا إرادة له فيه ، وأفعاله اضطرارية ، فهو أشبه بآلة تعمل بلا وعي ولا عقل ، والإنسان

مجبور في أفعاله ، لا قدرة ولا إرادة ولا اختيار له ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه ، كما يخلقها في سائر الجمادات . وهذا قول مرفوض ، يتنافى مع المسؤولية عن التكاليف الشرعية ، إذ لو كان الإنسان مجبوراً ، لما جاز سؤاله عن أفعاله كلها ، الخيِّرة أو الشريرة .

وقال المعتزلة : إن للعبد إرادة مع إرادة الله تعالى ، وبنوا على هذا القول أمرين :

الأول : إن العبد خالق لأفعاله مسؤول عنها ، فلو كانت مخلوقة لله ، ثم عذّبه عليها ، كان ظالماً له ، والظلم نقصان ، لا يليق بالله المتصف بالكمال .

والثاني : إن ما يناله من نعيم أو عذاب في الآخرة : هو بسبب عمله الحسن أو السيِّئ ، ومعنى ذلك أن إثابة الطائعين واجب على الله ، كيلا يظلمهم . وهذا الرأي مرفوض أيضاً لمنافاته للنصوص السابقة التي تقرر أن الله خالق كل شيء ، والأصل إرادة الله ، وأما إرادة الإنسان فهي تبع لإرادة الله ، ولا يليق بالله القول بإيجاب شيء عليه من غيره[1] .

وقال أهل السنة والجماعة : للعبد إرادة خاضعة لإرادة الله تعالى ، جارية على تقديره ، أي : إن إرادة الله عامة شاملة ، وإرادة العبد محدودة واقعة في محيط الإرادة العامة . وبنوا ذلك على أمرين :

الأول ـ إن كمال الإله في التفرد ، ونفي القدر عنه ، عيب ونقصان ،

---

(١) قال ابن تيمية في فتاويه ٨/ ٤٦٠ : ظهرت القدرية في أواخر عصر الصحابة ، ثم المعتزلة ، ثم الجبرية في أواخر دولة بني أمية ، وقد أنكر السلف والأئمة قول القدرية من المعتزلة وغيرهم ، وبدّعوا الطائفتين ، حتى في لفظ « الجبر » أنكروا على من قال : جبر ، وعلى من قال : لم يجبر .

والكمال يقتضي أن يكون كل شيء خاضعاً لقدرة الله ، وجارياً على ما تقضي به حكمته .

الثاني ـ إثابة المحسن ليس لإحسانه وحده ، وإنما ذلك من فضل الله عليه . وأما تعذيب من يعذّبهم الله ، فليس لذنوبهم وحدها ، وإنما ذلك لحكمة يعلمها الله ، وليس في هذا ظلم ، لأن الظلم إنما ينسب لمن يتصرف في غير ملكه ، والله سبحانه يتصرف فيما خلق .

وإذا أراد الإنسان شيئاً إرادة جازمة ، من طاعة أو معصية ، كان قادراً عليها ، باتفاق المسلمين .

١٩ـ ما معنى الكسب الإنساني؟ :

إن مباشرة الإنسان لأفعاله وممارسته لها تسمى كسباً ، والكسب : هو التحري والقصد ، وهو مستفاد من آيات قرآنية كثيرة ، منها : ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى : ٣٠] ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم : ٤١] .

وللكسب معانٍ عند الفرق الإسلامية :

فكسب القدرية والمعتزلة : هو وقوع الفعل عندهم بإيجاد العبد وإحداثه ومشيئته ، من غير أن يكون الله شاءه أو أوجده . قال أكثر المعتزلة : أفعال العباد واقعة بقدرتهم وحدها على سبيل الاستقلال بلا إيجاب ، بل باختيار .

وكسب الجبرية : لفظ لا معنى له ولا طائل تحته ، لأنهم كما تقدم عطّلوا كل إرادة أو تأثير للعبد في افعاله .

وكسب أهل السنة والحديث : هو الاقتران العادي بين القدرة الإلهية المحدثة والفعل ، أي : إن الله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة

العبد وإرادته ، لا بهما ، فهذا الاقتران هو الكسب[١] . وعبارة الإمام أحمد في هذا تدل على أن للإنسان قدرة تقارن فعله ، لا خلق لها ولا تأثير ، غير التمييز بين الفعل الاختياري والاضطراري ، وتلك القدرة هي المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[٢] [الشورى : ٣٠] .

يعني : أن الله تعالى يخلق الفعل الذي يمارسه الإنسان ، وأن القدرة التي يتم بها الفعل إيجاداً وإعداماً إنما هي قدرة الله ، والعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم ، لا بالإكراه والجبر ، وليسوا مجبورين في اختيارهم الأزلي ، أي : إن كل إنسان حينما يتصرف يكون تصرفه بقدرة الله تعالى وخلقه وإيجاده ، ولكن مع ثبوت الاختيار له ، فيما قد جعله مختاراً فيه ، أي : إن القصد إلى الشيء أو العزم عليه مع تنفيذه ، يقارنه خَلْق الله القدرة التنفيذية على إنجاز ذلك الفعل ، وتيسير الأسباب له إن شاء الله .

والتوسط في هذا الاتجاه كما قال ابن تيمية : هو أن العبد ليس خالقاً لأفعاله ، لأن الخلق لله ، وأن العبد ليس آلة مسخرة ، وإنما له دور في اختيار ما يعمل ، وهذا هو الذي يسمى كسباً[٣] .

وقال ابن القيم : الأعمال أفعال للعباد حقيقة ، ومفعولة للرب ، أي فالعبد فعلها حقيقة ، والله خالقه ، وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة ، وخالق فاعليته[٤] .

---

(١) الفتاوى لابن تيمية : ٨/ ٤١٧ .
(٢) هامش تفسير الكشاف ١/ ١٣٤ .
(٣) النبوات لابن تيمية : ص٩٧ ، ط المنيرية .
(٤) شفاء العليل : ص١٣١ .

وعند التحقيق لا جبر للإنسان ، لأنه ما من شيء يبرزه الله تعالى بمقتضى الحكمة ، ويفيضه على الممكنات إلا وهو مطلوب بلسان الاستعداد ، وما حَرَم الله أحداً من خلقه شيئاً من ذلك ، كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ [طه : ٥٠] أي : الثابت له في الأزل ، مما يقتضيه استعداده الذي ليس مجعولاً ، وليس يضر أن الصور الوجودية الحادثة من الإنسان مجعولة . وقوله سبحانه : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٨] معناه : أرشدها وساقها إلى اختيار ما هو ثابت لها في نفس الأمر .

٢٠ـ ما مراتب الإيمان بالقضاء والقدر؟ :

ذكر ابن القيم[١] أربع مراتب للقضاء والقدر ، يجب الإيمان بها ، ومن لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر ، وهي :

المرتبة الأولى : العلم السابق للرب سبحانه وتعالى بالأشياء قبل كونها ؛ وهذا اتفق عليه الرسل ، من أولهم إلى خاتمهم ، واتفق عليه جميع الصحابة ، ومن تبعهم من الأمة ، وخالفهم مجوس الأمة : « القدرية : مجوس هذه الأمة »[٢] « القدرية خصماء الله في القدر » .

---

(١) شفاء العليل : ص٢٩ـ٦٤ .

(٢) رواه ـ كما تقدم ـ أبو داود والحاكم عن ابن عمر . والمجوس طائفة من المشركين يعبدون الشمس ، وقيل : النار ، ويعتقدون بإلهين اثنين أصليين ، هما النور والظلمة ، فالخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة . والقدرية : طائفة من المسلمين يعتقدون أنه لا قدر ، وأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، بقدرة خلقها الله فيه ، فالخالق عندهم اثنان : الله تعالى ، والعبد في أفعاله الاختيارية . ولكنهم لم يكفروا لقولهم : إن العبد يخلق بالقدرة التي خلقها الله فيه ، فهم باعتقادهم بالخالقين كالمجوس في اعتقادهم بإلهين اثنين أصليين . وكلتا الطائفتين =

ودل على هذا العلم : قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

المرتبة الثانية : وهي كتابته تعالى الأشياء قبل كونها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] . فالزبور هنا : جميع الكتب المنزلة من السماء ، لا تختص بزبور داود ، والذكر : أم الكتاب الذي عند الله تعالى ، والأرض : الدنيا ، وعبادي الصالحون : أمة محمد ﷺ ، قال ابن القيم : هذا أصح الأقوال .

المرتبة الثالثة : وهي مشيئة الله تعالى للأشياء . وقد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وجميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى ، والفطرة التي فطر عليها خلقه ، وأدلة العقول والعيان ، فليس في الوجود موجب ولا يقتضي إلا مشيئة الله وحده ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣-٢٤] .

والكسب الذي هو إنجاز الشيء أو الاختيار : هو مناط الثواب والعقاب ، فمن قصد فعل شيء ونفذه ، كان مثاباً على ما هو طاعة ، ومعاقباً على ما هو معصية .

المرتبة الرابعة : وهي مرتبة خلق الله الأعمال وتكوينه لها وإيجاده

= على ضلال ، فإن الخير والشر من الله تقديراً أزلياً وخلقاً وإيجاداً ، ولكنهما ينسبان إلى العبد عملاً وكسباً واختياراً . والنصوص صريحة في هذا ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] وقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] وقال عز وجل : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

لها . وهذه أيضاً مرتبة متفق عليها بين الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعليها اتفقت الكتب الإلهية ، والفِطَر والعقول ، والاعتبار ، وخالف في ذلك مجوس الأمة ، فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، وهي أشرف ما في العالم ، عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته ، بل جعلوهم هم الخالقين لها ، ولا تعلّق لها بمشيئته ، ولا تَدْخل تحت قدرته . وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية . وعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالاً ، ولا يضل مهتدياً .

هذه هي مراتب القضاء والقدر التي يجب الإيمان بها ، فالله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

عن سليمان بن موسى والقاسم بن مخيمرة : أنه لما نزلت : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير : ٢٨] قال أبو جهل : جُعل الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] [التكوير : ٢٩] .

وقال النبي ﷺ - فيما رواه الترمذي عن جابر رضي الله عنه - : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » .

وقال الحسن البصري : « من كذَّب بالقدر فقد كذَّب بالحق ، إن الله عز وجل قدَّر خلقاً ، وقدَّر أجلاً ، وقدَّر بلاء ، وقدَّر مصيبة ، وقدَّر معافاة ، من كذَّب بالقدر فقد كذَّب بالقرآن » .

٢١ـ كيف يتم الإيمان بالقدر؟ :

طريق الإيمان بالقدر : أنه إذا كانت أعمال العبد طاعات ، أيقن أنها بتوفيق الله ، فشكره على ذلك ، فلم يقع في الغرور والبطر ، وإذا كانت

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٠ ، تفسير الآلوسي : ٣٠/ ٦٢ .

معاصي أو تقصيراً ، ندم على ذلك ، وعلم أنها بسبب أمر مقدور جرى عليه هو ، فذمَّ نفسه ، واستغفر الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وإذا أصيب بمصائب ، صبر عليها ، فلم توقعه في العجز ، أو توقفه عن الحياة ، قال الله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

عن طاوس اليماني قال : « أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شيء بقدَر ، حتى العَجْز والكَيْس »[١] .

٢٢ـ هل يصح الاحتجاج بالقدر عند ارتكاب الذنب؟ :

لا يصح الاحتجاج بالقدر عند ارتكاب الذنب أو الحرام ، أو التقصير في أمر من الأمور ، أو واجب من الواجبات الإسلامية ، ليعتذر المرء عن نفسه ، ويتخلص من تبعة الذنب ، وهذا ضلال وجهل .

وقد كان سوء فهم عقيدة القضاء والقدر من جملة أسباب تخلف المسلمين الذين فسّروا الأمور مجردة عن أسبابها ، متذرعين بالقدر ، واقعين في العجز والتواكل ، قائلين بأن ما قدِّر سيقع ، سواء حصل السعي أو لا ، مع أن ذلك ليس من الإسلام في شيء . سأل صحابة رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقىً نسترقي بها ، وتُقًى نتقي بها . . هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال : « هي من قدر الله »[٢] .

---

(١) رواه مسلم ومالك في الموطأ، والكَيْس: العقل والفطنة، ضد الحمق.

(٢) روى البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين بلفظ مقارب : « أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه . . » (جامع الأصول ١٠/ ٥١٤).

٢٣ـ هل لأحد أن يتمسك بالمشيئة الإلهية؟ :

لا يصح أيضاً الاعتراض على مشيئة الله تعالى التي أوجدت مفارقات واختلافات بين الناس ، مثل كون فريق للجنة وفريق للسعير أو النار ، وفريق أغنياء وآخرين فقراء ، أناس أصحاء وآخرين مرضى ، وجماعة بلون وآخرين بلون آخر ، فذلك الاختلاف لحكمة بالغة ، هي تحقيق التكامل في الحياة والكون ، فلولا الاختلاف لما وجد الاتفاق ، ولولا التغاير والتمايز ، ما عرفت المتعة واللذة أو الإحساس بالجمال وتمييزه عن القبح ، ولولا التفاوت في المال ما تحقق التنافس ، ولولا التعب من أجل الكسب المادي ، ما شعر المرء بالراحة ، ولا استطاب طعم الحياة ، فكان ضرورياً أن يؤدي كل واحد مهمته على ظهر الأرض ، وتكون النتيجة هي تحقيق الوحدة الكلية ، والوصول إلى الغاية المنشودة ، وتأمين مختلف المصالح والأغراض المتعددة من فئات الناس المتفاوتة ، فالحياة تتطلب خادماً ومخدوماً ، وسيداً ومسوداً ، وعاملاً ورب عمل وهكذا .

وأما خَلْق المرضى بجانب الأصحاء ، والمشوَّهين بجوار السالمين ، والمحرومين إزاء المترفين ، والأشقياء في مواجهة السعداء ، فذلك من أجل توزيع المهام التي يؤديها كل واحد منهم في الحياة ، طبقاً لما علم الله من قوى واستعدادات تناسب حال كل إنسان على وفق الحكمة العالية التي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] .

وقد ردَّ الله على المشركين الذين سوَّغوا شركهم وتذرعوا بمشيئة الله أو بالقدر ، بقوله سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ

﴿ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام : ١٤٨] أي : إنهم كاذبون معتمدون على الأوهام في تسويغ شركهم ، والواقع أنهم هم الذين اختاروا الشرك ، في العقيدة والعبادة ، فاستحقوا العذاب .

٢٤ـ هل يعتمد على الكتابة الأزلية وعلم الله السابق؟ :

إن أعمال الأشقياء أو السعداء المعلومة لله سابقاً قبل خلقهم : هي سبب تحديد وضعهم في الكتابة التي كتبها الله ، أي : دوَّنها أو سجَّلها ، ولم يفرضها على أحد ، ثم تكون لهم أو عليهم حجة دامغة يوم القيامة .

وهكذا تفهم الأحاديث المروية عن النبي ﷺ الدالة على الصورة الظاهرية لخلق الناس وولادتهم ، إما أشقياء وإما سعداء ، مثل الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[١] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :

« كنا في جنازة في بقيع الغَرْقد[٢] ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مِخْصَرة[٣] ، وهو ينكُت[٤] بمِخْصرته ، ثم قال : ما منكم من نفس منفوسَة[٥] إلا وقد كتب مكانها من الجنة أو النار ، وإلا

---

(١) ٨/ ٤٧ ، شرح مسلم للنووي ١٦/ ١٩٥ ، ورواه أيضاً البخاري وأبو داود والترمذي (جامع الأصول ١٠/ ٥١٥) .

(٢) مَقْبرة بالمدينة ، بضم الباء أو فتحها .

(٣) هي كالسوط وكل ما اختصر الإنسان بيده ، فأمسكه ، من عصا ونحوها .

(٤) النكت : ضرب الشيء بالعصا واليد ليؤثر فيه .

(٥) أي : مولودة .

قد كُتبت[١] شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ، وندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة ، فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فميسّرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ـ١٠] .

وهكذا اقتضت حكمة الإله الحكيم الخبير أن يخلق ما يشاء ، كيف يشاء ، وأن يجعل للجنة أهلاً وللنار أهلاً ، وما على المرء إلا أن يجدّ ويعمل وأن يقدّر أنه من أهل السعادة ، ما دام يجهل المكتوب ، وعليه أن يهتدي بالقرآن وبرسالة النبي ﷺ ، ويطيع أحكام الشريعة .

وإن العمل والاختيار والتزام التكاليف الشرعية : هو أساس التوزيع أو التصنيف للجنة أو النار ، والعبد مسؤول عن أفعاله ، خيرها وشرها ، نفَّذها او أهملها ، وليس له الاعتراض على الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

وبما أن حقيقة مصير الإنسان أو وضعه القدري مجهول ، فيجب عليه العمل بعمل أهل السعادة ، وتجنب عمل أهل الشقاوة ، وما الحياة إلا ابتلاء واختبار وامتحان سري ، لا نعلم منه شيئاً ، ليتحقق التسابق ، قال الله سبحانه : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

---

(١) أي : سطر وضعها في اللوح المحفوظ بحسب علم الله واطلاعه على أحوال النفس وسلوكها وتصرفاتها قبل خلقها « فقد علم الله ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم ، وبعد أن يخلقهم ، وقبل أن يعلموا ، قضاء وقدراً » .

٢٥ـ هل نتكل على رحمة الله؟ :

صحيح أن رحمة الله واسعة ، يمكن أن تشتمل على جميع الناس ، فيدخلهم الله في جناته ، لكن الرحمة مرتبطة بالعدل ، ومفوضة إلى الله تعالى ، فيكافأ المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف : ٥٨] . وقال عز وجل :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٥] .

فمن رحمة الله وفضله : ترك الظالم منعَّماً بنعم الله في الحياة الدنيا ، ولكن من عدل الله أن يعاقب الظالم على ظلمه في الدار الآخرة ، إذا لم يعف الله تعالى عنه ، وعلينا أن ندرك هذا التوازن في آيتين هما : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٣] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] ، فالرحمة لمن يستحقها بسبب طاعة الله وتوبته ، والعقاب للجاني بسبب جنايته وعناده .

٢٦ـ ما أنواع التقادير؟ :

علمنا أن القدر معناه : أن الله سبحانه وتعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه تعالى . والتقادير أربعة أنواع[1] :

الأول : التقدير في العلم : أي : في علم الله الأزلي ، قال الله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٩] أي : يصرف عن سماع القرآن

---

(١) شرح الأربعين النووية للنووي رحمه الله تعالى : ص١٤ـ١٥ .

وعن الإيمان به في الدنيا من صرف عنه في القدم ، قال رسول الله ﷺ : « لا يُهلِكُ الله إلا هالكاً »[١] أي : من كتب في علم الله تعالى أنه هالك .

الثاني : التقدير في اللوح المحفوظ : وهذا التقدير يمكن أن يتغير ، قال الله تعالى : ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إن كنت كتبتني شقياً ، فامحني ، واكتبني سعيداً » .

الثالث : التقدير في الرحم بحسب علم الله : وذلك أن الملَك الذي ينفخ الروح في الجنين يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد .

الرابع : التقدير : هو سوق المقادير إلى المواقيت ؛ فإن الله تعالى خلق الخير والشر ، وقدَّر مجيئه إلى العبد في أوقات معلومة .

والدليل على أن الله تعالى خلق الخير والشر : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٧ـ٤٩] قال الإمام النووي : نزلت هذه الآية في القدرية ، يقال لهم ذلك في جهنم . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق : ١ـ٢] .

وقال النووي أيضاً : وهذا القسم إذا حصل اللطف بالعبد ، صرف عنه قبل أن يصل إليه . وفي الحديث : « إن الصدقة وصلة الرحم تدفع ميتة السوء ، وتقلبه سعادة »[٢] . وفي الحديث أيضاً : « إن الدعاء والبلاء بين السماء والأرض يقتتلان ، ويدفع الدعاء البلاء قبل أن ينزل »[٣] قال

---

(١) رواه أبو عوانة في صحيحه بلفظ : « لا يهلك على الله إلا هالك » .

(٢) هذا ما ذكره النووي ، ورواه الطبراني عن عمرو بن عوف بلفظ : « إن صدقة المسلم تزيد في العمر ، وتدفع ميتَة السوء ، ويُذهب الله بها الكِبْر والفخر » (الترغيب والترهيب ٢/ ٢١) .

(٣) هذا ما ذكره النووي ، ورواه البزار والطبراني والحاكم عن عائشة بلفظ : « لا يغني =

النووي : وزعمت القدرية أن الله تعالى لم يقدِّر الأشياء في القدم ، ولا سبق علمه بها ، وأنه تعالى يعلمها بعد وقوعها ، وكذَبوا على الله سبحانه وتعالى ، جل عن أقوالهم الكاذبة ، وتعالى علواً كبيراً . وهؤلاء انقرضوا ، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة يقولون : الخير من الله ، والشر من غيره ، تعالى الله عن قولهم ، وصح عنه ﷺ أنه قال : « القدرية مجوس هذه الأمة » سماهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس ، وزعمت المثنوية : أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، فصاروا مثنوية ، كذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله ، والشر إلى غيره ، وهو تعالى خالق الخير والشر .

٢٧ـ ما معنى القدر عند الخلقة؟ :

وردت أحاديث كثيرة تثبت القدر عند الخلقة في البطن حين نفخ الروح ، منها : حديث ابن مسعود : « إن أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضعة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملَك فينفُخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكَتْب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . فوالله الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب[1] فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلُها »[2] .

= حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » أي : يتصارعان ويتدافعان .

(١) أي : الذي سبق في العلم ، أو الذي سبق في اللوح المحفوظ ، أو الذي سبق في بطن الأم .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ورواه أيضاً أبو داود =

ومنها حديث ابن عمر : قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يخلق نسمة ، قال ملَك الأرحام معرضاً : أي رب ، أذكر أم أنثى ، فيقضي الله ، فيقول : أي رب أشقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره ، ثم يكتب بين عينيه ما هو لاقٍ ، حتى النكبة ينكبها »[١] .

معنى القدر في الحديثين وأمثالهما : هو ما يُدوَّن للجنين بحسب علم الله تعالى فيه ، وما يكون من مستقبل الطفل ، واختياره بعد التكليف (البلوغ مع العقل) إما طريق أهل الإيمان والسعادة ، وإما طريق أهل الكفر أو الضلال والشقاوة ، وعلم الله محيط بالماضي والحاضر والمستقبل ، ولا يتغير علم الله ، وإلا لانقلب جهلاً ، فيقع في واقع الإنسان ما علمه الله من أحوال المخلوق قبل إيجاده ، ويتحقق التطابق بين العلم الذي هو صفة كاشفة لا علاقة لها بالجبر أو الإكراه ، وبين واقع التصرف الإنساني والسلوك البشري . قال ابن رجب : في هذا الحديث : أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما ، وأن ذلك مقدّر بحسب الأعمال ، وأن كلاً ميسر لما خلق له من الأعمال ، التي هي سبب السعادة والشقاوة[٢] .

٢٨ـ ما معنى القدر عند الخاتمة؟ :

أخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله . فقيل له : كيف

= والترمذي (جامع الأصول : ١/ ٥١٧) .

(١) رواه أبو يعلى والبزار (مجمع الزوائد : ٧/ ١٩٣) .

(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٠٨ .

يستعمله يا رسول الله؟ قال : يوفّقُه لعمل صالح قبل الموت »[١] .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يُختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يُختم له عمله بعمل أهل الجنة »[٢] وفي معناه القسم الثاني من حديث ابن مسعود المتقدم .

دلت هذه الأحاديث على عدم القطع بدخول الجنة أو النار ، وإن عمل الإنسان سائر أنواع البر ، أو عمل سائر أنواع الفسق ، وعلى أن الشخص لا يتكل على عمله ولا يعجب به ، لأنه لا يدري ما الخاتمة ، وينبغي لكل أحد أن يسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة ، ويستعيذ بالله تعالى من سوء الخاتمة وشر العاقبة[٣] .

فالأعمال بخواتيمها ، وهذا التغير أو التبدل ليتطابق المصير النهائي مع المكتوب المقدر المعلوم لله سلفاً : وهو أن هذا الإنسان سيختار الكفر أو الإيمان ، في نهاية عمره ، فهذا القدر المختوم به ليس بالإكراه أو الجبر أو القسر ، وإنما باختيار الإنسان ، قال النبي ﷺ : « صاحب الجنة مختوم له بعمل أهل الجنة ، وصاحب النار مختوم له بعمل أهل النار ، وإنْ عمل أي عمل »[٤] وفي رواية للبخاري : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

ومثال ذلك : حدث في عهد النبي ﷺ أن رجلاً كان يناضل ويجاهد

---

(١) جامع الأصول ١٠/ ٥٢٠ .
(٢) المرجع والمكان السابق .
(٣) شرح الأربعين النووية للنووي : ص٢٢ .
(٤) أخرجه الطبراني من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

المشركين مع النبي ﷺ ، يضرب بسيفه الأعداء ، فأخبر النبي : « هو من أهل النار » فجرح الرجل جرحاً شديداً ، ثم استعجل الموت ، فتحامل على سيفه ، فقتل نفسه[١] .

وبكى بعض الصحابة عند موته ، فسئل عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين ، فقال : هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار ، ولا أدري في أي القبضتين كنت »[٢] .

٢٩ـ هل يفيد العمل مع القدر؟ :

عرفنا فيما مضى ولا سيما في السؤالين (٢٤ ، ٢٧) أن العمل في أثناء الحياة ليس قرينة على النجاة ، وإنما الأعمال بالخواتيم ، بحسب اختيار الإنسان نهايته ، فالعمل في كل الأحوال لا بد منه ، والخاتمة من العمل ، ولا يتنافى العمل مع القدر ، كل ما في الأمر أن يحدث التلاقي في آخر العمر على وجه صحيح بين العمل والقدر ، وأن ييسر كل عامل لما خلق له . وقد ورد في ذلك أحاديث غير ما ذكر في السؤال ٢٤ ، منها[٣] :

ما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، وفي يده كتابان ، فقال : أتدري ما هذان الكتابان؟ قلنا : لا ، يا رسول الله ، إلا أن تخبرنا . فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ،

---

(١) الحديث ثابت في الصحيحين ، عن سهل بن سعد .
(٢) حديث صحيح الإسناد ، أخرجه أحمد في المسند .
(٣) انظر جامع الأصول ١٠/ ٥١٣ـ٥١٧ ، مجمع الزوائد ٧/ ١٩٤ـ١٩٥ .

وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل على آخرهم[١] ، فلا يُزَاد فيهم ، ولا ينقص منهم أبداً . وقال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل على آخرهم ، فلا يُزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، قال أصحابه :

ففيم العمل يا رسول الله؟ إن كان أمرٌ قد فُرِغ منه ، فقال : سدِّدوا وقاربوا[٢] ، فإن صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أيَّ عمل . وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أيَّ عمل .

ثم قال رسول الله ﷺ بيده ، فنبذهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير » .

ومنها : ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رجل : « يا رسول الله ، أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال : نعم ، قال : ففيم يعمل العاملون؟ قال : كلٌّ ميسر لما خلق له » .

ومنها : ما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال عمر : « يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ، أمر مبتدَع ـ أو مبتدأ ـ أو فيما قد فُرِغ منه ، فقال : بل فيما قد فُرِغ منه ، يا بن الخطاب . وكلٌّ مُيَسَّر ، أما من كان من أهل السعادة ، فإنه يعمل للسعادة . وأما من كان من أهل الشقاء ، فإنه يعمل للشقاء » .

وفي رواية : قال : « لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود : ١٠٥] سألتُ رسول الله ﷺ فقلت : يا نبي الله ، فعلام نعمل على شيء قد

---

(١) أي : عقدت جملتهم ، لا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان ، أي : جمع أهل الجنة وأهل النار عن آخرهم .

(٢) السداد : الصواب في القول والعمل ، والمقاربة والقصد فيهم .

فُرغ منه ، أو على شيء لم يُفْرَغ منه؟ قال : بل على شيء قد فرغ منه ، وجرت به الأقلام يا عُمر ، ولكن كلٌّ ميسر لما خلق له » .

وفي رواية مسلم عن جابر رضي الله عنهما قال : « جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم ، فقال : يا رسول الله ، بيّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن ، فيم العمل اليوم : فيما جَفَّت به الأقلام ، وجَرَت به المقادير ، أم فيما يُستقبل؟ قال : بل فيما جَفَّت به الأقلام ، وجرت به المقادير . قال : ففيم العمل؟ قال : اعملوا ، فكل ميسرٌ لما خلق له ، وكلٌّ عاملٌ بعمله » .

والمراد من هذا كله ليس الإجبار والقهر للإنسان على ما قضاه الله وما قدره ، وإنما معناه : الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم ، صدورها عن تقدير من الله ، وخَلْقٍ لها خيرها وشرها . ويبقى من وراء علم الله في العباد : أفعالهم واكتسابهم ، ومباشرتهم تلك الأمور ، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد ، وتقدم إرادة واختيار ، لإقامة الدليل الملموس عليهم ، فالحجة إنما تلزمهم بها ، والملامة تلحقهم عليها . والتيسير لما خلق له : معناه الصيرورة .

٣٠ـ ما حكم الأطفال الذين ماتوا؟ :

من وقائع الحياة المتكررة : موت الأطفال قبل البلوغ ، فما حكمهم سواء أكانوا أطفال المؤمنين أم أطفال المشركين ، أهم في الجنة أم في النار؟ .

وردت أحاديث صريحة في ذلك ، منها[1] :

---

(١) راجع جامع الأصول ١٠/ ٥٢١ـ٥٢٢ .

ـ ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : « يا رسول الله ، ذراري[1] المؤمنين؟ فقال : من آبائهم؟ فقلت : يا رسول الله بلا عمل؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين . قلت : يا رسول الله ، فذراري المشركين؟ قال : من آبائهم ، فقلت : بلا عمل؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » .

ـ وما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين؟ فقال : الله ، إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين » .

دلَّ ذلك على أن أطفال المؤمنين الذين ماتوا قبل البلوغ ناجون ، ولقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] .

وكذلك أولاد المشركين والكفار ناجون ، لموتهم قبل التكليف ، ولو من غير عمل ، كما جاء في الأحاديث .

٣١ـ ما مصدر السعادة والشقاء؟ :

إن السعادة والشقاوة مصدرهما : أفعال الإنسان نفسه ، والإضلال والهداية المذكوران في القرآن الكريم ليس معناهما وضع طاقات في البشر توجههم نحو السعادة أو الشقاء ، وإنما معناهما أو أثرهما يحصل بعد اختيار الإنسان أصل الضلالة أو أصل الهداية ، فمن سلك بإرادته سبيل الضلالة والغواية ، وعزف عن طريق الهداية ، تركه الله سبحانه في ضلالته يتردد . ومن اختار طريق الهدى والرشاد بنفسه ، وأقلع عن الشرك والظلم والضلال ، وفقه الله تعالى إلى متابعة طريقه وسلوك سبيله .

---

(١) الذراري والذرّيات : أولاد الرجل .

٣٢ـ ما أسباب السعادة والشقاء؟ :

إذا نظرنا إلى الأسباب التي دعا الله تعالى الخلق إلى استعمالها ليكونوا سعداء ، فمن جاءه الخير ، فهو بحسن استعماله لما وهب الله ، ومن جاءه الشر ، فهو لسوء استعماله ، ولا قهر ولا إجبار ، لقوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ (١) وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٢) ﴾ [النساء : ٧٩] .

فالخير ينسب إلى مصدره الأول وهو الله تعالى إذا تم على حسب ما يريد ، كما جاء في آية : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] ولم يقل : والشر ، لأنه لا شر عنده ، وينسب الشر إلى السبب القريب وهو الإنسان إذا جاء على غير ما يحب الله تعالى .

٣٣ـ ما معنى الإضلال الإلهي؟ :

الإضلال الوارد في بعض النصوص الشرعية مثل : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٨٨ ، ١٤٣] ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] معناه : الإبقاء في الضلال ، والجهل بالحقيقة ، والانحراف عن طريقها بعد الاتجاه ، أو التعرض لأسباب ذلك ، وممارسة مساوىء الضلال ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] وقال : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] ولم يقل : يضل المؤمنين المتقين . وإرادة الله الضلال لشخص ما ، يخضع لحكمة إلهية قد لا ندرك سرها ، لكن الله تعالى إذا أراد شيئاً

---

(١) أي خلقاً وإيجاداً.

(٢) أي كسباً وتنفيذاً .

لا يعني أنه يأمر به ، أو يكره أحداً عليه ، لأن الله كما قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] وقال : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾ [الزمر : ٧] . ومن معاني ذلك : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ ﴾ [مريم : ٧٥] أي : إن الله يمد لمن كان غارقاً في الضلالة ، فيزداد بذلك المد ضلالاً .

وقد يراد بالإضلال : الإغواء الذي يزيف الباطل ويصوره بصورة الحق ، وهو وسواس الشيطان من الإنس والجن ، كما في آية : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾[1] [يس : ٦٢] أي : لقد أغوى الشيطان خلقاً كثيراً ، وزيَّن لهم فعل السيئات ، وصدَّهم عن طاعة الله وتوحيده ، أفلم تعقلوا عداوة الشيطان لكم ، وتبتعدوا عن مثل ضلالات السابقين ، حتى لا تعذبوا مثلهم[2] .

ولا يكون الإضلال من الله تعالى إلا بعد اختيار الإنسان طريق الضلالة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] وقرر الله تعالى حكماً عاماً في هذا الموضوع حيث قال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٥] أي : ليس من شأن الله إضلال قوم ، أي : إثبات ضلالهم ، بعد إثبات الهداية لهم بسبب ما كسبوه من إيمان وعمل صالح ، حتى يبين لهم المحرّمات التي يبتعدون عنها ، فإن ارتكبوها ، حكم الله عليهم بالضلالة ، لمخالفتهم شرع الله وحكمه .

---

(١) أي خلقاً كثيراً .

(٢) التفسير المنير للمؤلف ٢٣/ ٣٧ .

٣٤ـ ما المراد بالهداية الإلهية؟ :

لا شك بأن لله تعالى هداية لعباده ، ولولا هدايته ، لضل الناس جميعاً ضلالاً بعيداً ، فكان من فضل الله تمكينهم من اختيار الطريق الأقوم أولاً ، ثم الأخذ بأيديهم لمتابعة طريق الهداية والرشاد . وعلى هذا تكون الهداية نوعين : هداية عامة ، وهداية خاصة ، أي : الإرشاد ، أو التوفيق .

أما الهداية العامة : فهي الدلالة وبيان الطريق القويم أو الصحيح ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] أي : بينا له طريقي السعادة والشقاوة ، والخير والشر ، وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة ، وهداية العقل ، وهداية الدين .

وأما الهداية الخاصة : فهي التوفيق ، كما في قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] وقوله عزوجل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] . وهذه الهداية ليست الدلالة العامة كما سبق ، وإنما هي الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة ، مع الدلالة .

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين ، واستعمال الحواس والعقل ، كان محتاجاً إلى المعونة الخاصة ، فأمرنا الله بطلبها منه ، في قوله عز وجل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] . وأوضح ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم : ٧٦] وقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] . أي : من يرد أن يوفقه الله ويثبّته على الإيمان ، ويوفقه للاستزادة من الهداية ، يشرح الله صدره لتطبيق أحكام الإسلام ، واتّباع الأوامر الإلهية ، ومن يرد

إبقاءه في الضلالة بسبب اختياره لها ، وإصراره عليها ، يمنع عنه النفوذ إلى الهداية عقاباً له من الله تعالى .

وجعل الله تعالى القرآن الكريم سبيلاً وسبباً للهداية ، فقال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٦] . وقال سبحانه :

﴿ الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١-٢] .

وإذا سأل الإنسان : أن يهديه الله ويستعينه على طاعته ، أعانه وهداه ، وكان ذلك سعادته في الدنيا والآخرة .

ويكرم الله تعالى أهل الإيمان ، ولا سيما في حال التعرض للمصيبة ، فيلقي عليهم من معين هدايته ، أي : توفيقه وإرشاده ، وتثبيته وتوفيقه ما يجعلهم راضين مطمئنين ، متجاوزين المحنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

٣٥ـ هل هداية جميع الناس مقدور عليها؟ :

إن كان ذلك متروكاً لقدرة البشر ، فلا يمكن تحقيق هذا المطلب ، لقوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] ، وأما إن كان ذلك بالنسبة لله تعالى فهو أمر مقدور عليه منه تعالى ، لأن الله على كل شيء قدير ، وبدليل قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٨] وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل : ٩] وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] أي إن الله

تعالى قادر على هداية الناس جميعاً ، من طريق الإرغام أو الإكراه كما في آية : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة : ١٣] ، ولكن مشيئته أن يترك أمر الهداية لإرادة الإنسان وحريته واختياره .

ولكن ذلك لا يمنع من وجود ما يسمى باللطف الإلهي ، فقد يلطف الله بعبده ، فيوفقه للخير وسلوك سبيل الحق ، ولقانون اللطف أيضاً أسباب معينة يكتسبها الإنسان .

يتبين من هذا أن الله تعالى قادر على كل شيء ، فلو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولجعلهم أمة واحدة ، على دين واحد ، أو لأرغمهم على الإيمان بالله رباً واحداً ، ولكنه لم يشأ ذلك ، تاركاً للنفس الإنسانية الحرية في مقاومة نوازع الشر ، وألوان الكفر ، وجهاد الأهواء ، وتغليب عوامل الإيمان ، والقيام بمقتضى التكاليف الإلهية ، عن رغبة وإرادة ذاتية ، تؤهلهم لاستحقاق المكافأة الحسنة في الدنيا والآخرة ، عن جدارة وعمل يتميز به كل واحد عن غيره ، دون إيجاد سبيل للاعتراض أو الاحتجاج بالمشيئة الإلهية من إنسان ، وهو جاهل بها ، وليقيم الله سبحانه بخلق الإنسان وصحائف أعماله وممارساته دليلاً مادياً ، وحجة عليه وعلى غيره ممن يعترض على تصنيف الناس إلى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، أو تمييز هؤلاء عن أولئك ، إذ لا عذر لأحد بالتقصير فيما أمر الله ، أو الانتهاء عما نهى الله عنه . ويكون هذا التصنيف أو التمييز طبقاً لما علم الله سلفاً من اتجاه الإنسان وسلوكه وعقيدته .

وسيأتي بيان سبب التصنيف المذكور إلى فريقين .

٣٦ـ ما سبب الهداية؟ :

سبب الهداية هو ذلك النور الإلهي الذي يفيض على قلب الإنسان ووعيه وعقله ، فيجعله في عداد المؤمنين الصالحين ، بحسب ما يعلم الله من حال كل إنسان وكسبه وتحصيله قبل خلقه ، ثم لا يقع من الإنسان إلا ما يطابق ذلك العلم الإلهي الشامل لكل شيء ، لأن علم الله لا يتخلف ولا يخدش أو يطعن فيه ، وهذا ما أخبر عنه النبي الصادق المصدوق من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق خَلْقه في ظُلْمة[١] ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله »[٢] .

٣٧ـ ما الفرق بين القضاء والمقضي؟ :

ينقم الإنسان ويسخط على ما يتعرض له من شر أو محنة ، ويتشاءم من الأشياء ، كما حكى القرآن الكريم عن طبع الإنسان في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء : ٨٣] وقد يكون في تلك المحنة خير آجل ، لذا كان لا بد من التمييز بين القضاء والمقضي .

أما القضاء : فهو فعل الله تعالى وإرادته ومشيئته ، وهذا لا شرّ فيه .

---

(١) أي ليس معنى ذلك كون إرسال النور عشوائياً ، وإنما تم بما يطابق علم الله عز وجل .

(٢) أخرجه الترمذي ، وأحمد بإسنادين ، والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات (جامع الأصول ١٠/ ٥٢٠ ، مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣) .

وأما المقضي : فهو فعل الإنسان المشتمل على الخير والشر ، وعلى الحسن والقبيح . والقضاء خير كله ، كيفما كان ، وعدل ، وحكمة إلهية ، لأنه مرتبط بالنظام الكوني العام ، لتحقيق التناسب بين المخلوقات .

والمقضي : منه ما يرضي الله ، ومنه ما لا يرضى الله به ، لأن تنفيذه بتدخل إرادة الإنسان .

قال العز بن عبد السلام شيخ الإسلام : من أعمال القلوب : الرضا بالقضاء ، فإن كان المقضي به طاعة ، فليرض بالقضاء والمقضي به جميعاً . وإن كان معصية فليرض بالقضاء ، ولا يرضى بالمقضي به ، بل يكرهه . وإن لم يكن طاعة ولا معصية ، فليرض بالقضاء ، ولا يتسخط بالمقضي به ، وإن رضي به كان أفضل[1] .

٣٨ـ هل هناك قدر حتمي؟ :

هناك أمور لا تخضع لإرادة الإنسان واختياره ، ولا يسأل ولا يحاسب عنها ، لأن القضاء والقدر يحتّمها ، لحكمة معينة ، لا ندرك سرها ، ولا إرادة للإنسان فيها ، أو لا يستطيع التحكم في تقرير نتائجها ، كالحياة والموت ، والصحة والضعف ، والغنى والفقر ، والسفر والإقامة ، والحب والكراهية ، والعزة والمذلة ، ونحو ذلك من المصائب والنعم المرتبطة بالنظام الكوني العام ، فهذه يكون الإنسان فيها مسيَّراً لا مخيراً . وأما من ناحية الخلق والإيجاد ، فجميع الأمور الاختيارية والقسرية من عند الله تعالى ، لقوله سبحانه : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٧٨] .

---

(١) قواعد الأحكام ١/١٨٨ ، ط الاستقامة .

وبناء عليه ، يكون الإيمان بها بحسب المشيئة الإلهية ، وإن اتخذ أسباباً لها ، ويجب عليه الصبر في تحمل نتائجها ، وإن كانت قاسية في الظاهر لنا ، لقوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [التغابن : ١١] : أي : إن ما يصيب الإنسان من جهة الله تعالى بفعله وخلقه يجب عليه الرضا بقضائه .

٣٩ـ لماذا وجد الشر وألوان الأذى؟ :

الشر في هذا العالم واقع قائم ، وكذلك النفس الإنسانية تشتمل على نزعتي الخير والشر ، والحياة فيها حالات خيِّرة ، كما أن فيها أحياناً مكروهات ومنغصات ومؤلمات ، مثل وجود التعديات ، واغتصاب أراضي الآخرين ، كما يفعل الصهاينة الأوغاد مع العرب في الأرض المحتلة ـ فلسطين ، ومثل التعرض لمكائد الشر ومؤامرات الأذى ، ومثل تسلط الوحوش والأفاعي ونحوها على النفوس والأموال .

وقد أثار هذا السؤال جدالاً عنيفاً وصراعاً حاداً بين الفلاسفة أنفسهم وبينهم وبين رجال الدين أيضاً ، وانقسم المسلمون في جواب هذا التساؤل فريقين : فريق المعتزلة ، وفريق الفلاسفة .

أما أهل السنة والجماعة : فالتزموا حدود الكتاب والسنة ، ولم يتجاوزوا ظواهر نصوصهما[1] .

قال ابن سينا شيخ فلاسفة المسلمين (المتوفى سنة ٤٢٨هـ) والملقب بالرئيس : إن هذا الوجود خير محض ؛ لأنه صادر عن إله حكيم ، والحكيم لا يصدر عنه إلا الخير ، وأما ما يبدو في ظاهر الحياة من

---

(١) القضاء والقدر للدكتور عبد الكريم الخطيب : ص١٢٧ وما بعدها .

شرور ، فهي في أصلها خير ، ولكن اتصالها ببعض الأشياء يجعل منها شراً ، ولكنه شر إضافي بالنسبة للغير الذي لابسه أو اتصل به . وأما ما وراء ذلك فهو خير يؤدي وظيفته في كمال الوجود وحسن نظامه .

مثلاً : إن الأخلاق الردية والآلام ليست شراً من حيث هي في نفسها ، وإنما هي شر بالقياس إلى النفس التي فقدت كمالها ، وما يجب أن تتحلى به من الملكات الفاضلة ، وإلى المريض المتألم الذي فقد راحته بسببها ، فالشر في هذه ليس إلا عدم كمال النفس ، وعدم راحة المريض[١] .

وأقر هذا الرأي ابن القيم (المتوفى سنة ٥٧١) فقال : الأمور الوجودية ليست شروراً بالذات ، بل بالعَرَض (أي بالشيء الطارىء) . . فإنك لا ترى شيئاً من الأفعال التي هي شر إلا وهي كمال بالنسبة إلى أمور . . وجهة الشر فيها بالنسبة إلى أمور أخرى[٢] . فالقتل مثلاً : هو استعمال الآلة القاطعة في تفريق أوصال البدن . . وقدرة الإنسان على استعمال الآلة خير ، وكون الآلة قابلة للتأثير خير ، وكون المحل قابلاً كذلك خير ، وإنما الشر نسبي إضافي ، وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه ، والعدول به عن المحل المؤذي إلى غيره . وهذا بالنسبة للفاعل القاتل . وأما بالنسبة للمفعول المقتول فهو شر إضافي أيضاً ، وهو ما حصل له من التألم ، وما فاته من الحياة ، وقد يكون ذلك خيراً له من جهة أخرى ، وخيراً لغيره .

وأما نظرة الإسلام إلى الشر ، فهي أنه كيان قائم بذاته إزاء الخير ، وعلى الناس أن يحذروه ، وأن يعملوا له حسابه في موازنة الأمور التي تعرض لهم .

---

(١) المرجع السابق : ص١٣٠ .

(٢) المرجع نفسه : ص١٣٢ وما بعدها .

٤٠ـ هل يعترض على المشيئة الإلهية بتقدير فوارق الناس؟ :

لا يصح الاعتراض على مشيئة الله تعالى التي جعلت مفارقات واختلافات بين الناس ، مثل كون فريق للجنة ، وفريق للنار ، فريق أغنياء وآخرين فقراء ، أناس أصحاء وآخرين مرضى ، جماعة سادة وآخرين أتباع ، شعب من لون وشعب من لون آخر ، فذلك الاختلاف لحكمة بالغة ، هي تحقيق التكامل في الكون والحياة .

فلولا الاختلاف ما وجد الاتفاق ، ولولا التغاير والتمايز ، ما عرفت المتعة واللذة أو الإحساس بالجمال ، ولولا التفاوت في المال ما تحقق التنافس ، ولولا التعب من أجل الكسب المادي ، ما شعر المرء بالراحة ، ولا استطاب طعم الحياة ، فكان ضرورياً أن يؤدي كل واحد دوره على ظهر الأرض . وتكون النتيجة هي تحقيق الوحدة الكلية ، والوصول إلى الغاية المنشودة ، وتأمين مختلف المصالح والأغراض المتعددة من فئات الناس المتفاوتة .

وأما خَلْق المرضى بجانب الأصحاء ، والمشوهين بجوار السالمين ، والمحرومين إزاء المترفين ، والأتباع في مقابل السادة ، والأشقياء في مواجهة السعداء ، فذلك كله ونحوه من أجل توزيع الأدوار التي يؤديها كل واحد في الحياة ، وهو عنصر الابتلاء في الحياة والممات ، طبقاً لما علم الله من قوى واستعدادات ، تناسب حال كل إنسان على وفق الحكمة العالية التي نص عليها القرآن الكريم ، في قول الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] .

٤١ـ هل تتعارض أو تتناقض إرادة الله؟ :

لا تعارض ولا تناقض في إرادات الله تعالى ، فإذا أراد الله شيئاً معيناً ، استحال أن توجد إرادة أخرى تناقضها ، لاستحالة الجمع بين النقيضين أو الضدين في شيء واحد ، ووقت واحد .

وعلى هذا لا تعارض بين مراد الله تعالى ، وبين مراد العبد واختياره ، لأن الإنسان يجهل مراد الله ، فيقوم بالشيء بحسب اختياره ، وعليه التزام ما كلفه الله به في حدود استطاعته إن كان أمراً ، واجتناب الشيء كلياً إن كان نهياً ، ولا يقع من الإنسان في النهاية إلا ما يتطابق مع إرادة الله تعالى ، وما يختاره الإنسان لا يصادم إرادة الله تعالى ، لأن الله هو الذي منح سلطة الاختيار للإنسان .

والتكليف يكون بقدر الاستطاعة ، والحساب يكون على ما هو داخل في كسب الإنسان واختياره ، ولا يكلف بما لا يستطيع ، ولا يحاسب على ما هو مجبر أو مكره عليه ، لقوله ﷺ : « إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[١] .

ومن فضل الله تعالى ورحمته أنه لا يحاسب على النيات والبواعث وأحاديث النفس ، ما لم يقترن ذلك بالعزم والتنفيذ ، لقوله ﷺ : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »[٢] .

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي ذر ، والطبراني والحاكم عن ابن عباس ، والطبراني عن ثوبان .

(٢) رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة ، والطبراني عن عمران بن حصين .

٤٢ـ هل الرحمة الإلهية عامة أو خاصة؟ :

رحمة الله تعالى واسعة شملت كل شيء في الدنيا ، كما جاء في آية : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . ويمكن أن تشمل رحمة الله جميع الناس في الآخرة ، فيدخلهم في جنته ، لكن هذا يتنافى مع مقتضى العدل ، فتكون الرحمة مرتبطة بالعدل ، وبناء على ذلك ، يكافأ المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، كما أوضح الحق تعالى باقتران الرحمة مع العدل : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف : ٥٨] وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر : ٤٥] .

أي إن الرحمة في الدنيا فوق العدل ، فمن رحمة الله وفضله ترك الظالم منعَّماً بنعم الله في الحياة الدنيا ، ولكن من عدل الله أن يعاقب الظالم على ظلمه في الدار الآخرة ، إذا لم يعف الله تعالى عنه ، ومن عدل الله تعجيل عقاب الظالم في الدنيا ، ولكن الله يمهله ويمنحه فرصة أخرى ليصلح شأنه .

والخلاصة : الرحمة فوق العدل في الدنيا ، والرحمة مع العدل في الآخرة ، إلا إذا شاء الله أن يرحم من يشاء .

٤٣ـ متى يكون التوفيق الإلهي والخذلان؟ :

إن اختيار أصل العمل الموجب للسعادة أو الشقاوة يستتبع توفيقاً من الله تعالى للمتقين (أي الملتزمين هدي ربهم) وخذلاناً للفاسقين (أي الخارجين عن حدود الدين وأحكامه) لأن الضلالة والإهداء كما تقدم

بيانه يكونان بعد اختيار الإنسان سبيلهما ، وإن كان الله سبحانه قادراً على كل شيء .

وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] وقوله سبحانه : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر : ٨] أي إن الله سبحانه يضل من جمحت به نفسه إلى مهاوي الضلال ، وتنكَّب طريق الهداية ، كما جاء في آية أخرى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

أي إن المشرك الذي تصور الإله بحسب هواه ، وأبقاه الله في ضلاله وأمده فيه ، ومنع تسرب نور الله لقلبه وسمعه ، وجعل على بصره غطاء ، لن يجد بعدئذ هادياً من غير الله تعالى ، وهذا هو خذلان الله لمن خذل نفسه ، مع أن وسائل الهداية متوافرة ، وهي العقل ورسالات الرسل ، كما جاء في آية أخرى هي : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ [التوبة : ١١٥] .

٤٤ـ ما معنى الختم أو الطبع على القلوب؟ :

حينما يصرّ الإنسان على الكفر ، ويغلق بنفسه كل منافذ الهداية ، يختم الله على قلبه ، أي يحجبه من الانتفاع بوسائل الهداية والإرشاد .

أما مطالبة الكفار بالإيمان ، على الرغم من أن الله تعالى علم عدم إيمانهم ، فلأن الإيمان أمر مقدور لهم ، بعد أن زوَّدهم الله تعالى كغيرهم بعقول تميز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل لهم رسلاً ، وأنزل عليهم كتباً ، وهيأ لهم الأسباب ، فآثروا الهوى على التقوى ، واستحبوا العمى والضلالة على النور والهدى ، فطبع الله على قلوبهم ، وزادهم غياً بكفرهم .

وهذا هو معنى الآيات التالية :

ـ ﴿ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٥] .

ـ ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٧] .

ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٣] .

ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[البقرة : ٦ـ٧] .

٤٥ـ ما مصير المختوم على قلوبهم؟ :

إن المصير المحقق للذين ختم الله على قلوبهم هو الهلاك والدمار والخلود في نار جهنم إذا ماتوا مصرِّين على الكفر والضلال .

ذلك لأن الأفعال الشريرة والخيرية التي تصدر من الإنسان ، وإن كانت بقضاء الله وقدره خلقاً وإيجاداً وتقديراً بحسب علم الله فيه ، فإن على الإنسان أن يؤمن يقيناً بكل ما وقع منه أو وقع له ، لأن له دوراً واضحاً في تحصيل الأفعال ، بعد أن توافرت له أسباب الهداية ، ومنذرات الضلالة ، من عقل ، وهداية ربانية بالرسل والكتب السماوية ، ووقائع الحياة ومنبِّهات الفطرة ، عملاً بما جاء في الآية القرآنية الشريفة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

وحينئذ لا يعترض على خَلْق أهل الشقاء ، لأن الله يريد إقامة الحجة عليهم ، ليظهر أن كل إنسان يعاقب بما فعل من خير أو شر .

وما دام المصير الحتمي سيِّئاً جداً ، فعلى المؤمن أن يتعظ أو يعتبر بهذا ، فيبادر إلى تصحيح انحرافاته ، والإقلاع عن أخطائه ، والتوبة عن سيئاته قبل فوات الأوان ، مستعيناً بالله تعالى ، مجدداً العزم على خوض

غمار الحياة بقلب متفتح ، وعقل واع ، ونفس متفائلة غير مثقلة بأوزار الماضي ، وأغلال المعاصي الثقيلة ، فيكون الرضا بالقدر وسيلة راحة ، لإراحة النفس التي تتجه إلى الحياة بطاقة إيجابية وقدرة جديدة ، لا تعرف الكلل والملل ، أو الاستسلام للواقع .

٤٦ـ ما معنى التسليم لله تعالى؟ :

بعد أن يقع المقدور ، لا فائدة من السخط والغضب على ما وقع ، وعلى الإنسان أمران : التوبة عن سوء الأفعال الماضية ، وفتح صفحة جديدة أو نافذة على الحياة بروح وثابة ، وحسن ظن بالله ، وتصحيح المسيرة ، والتسليم لله فيما قدر ، والرضا به بعد أن يقع . أما قبل أن يقع ، فإن من سبيل المؤمنين الأخذ بالأسباب ، ومدافعة الأقدار بالأقدار[١] .

٤٧ـ هل الإيمان بالقدر يعفي من المسؤولية؟ :

الإيمان بالقدر لا يعني الإعفاء من المسؤولية عن أعمال المرء الماضية ، التي ارتكبها مريداً مختاراً . أما كيفية هذه المسؤولية ومداها ونوع الجزاء المعد ، وآفاق الرحمة الممنوحة من الله لعباده ، أو المغفرة السابغة على الذنوب ، فكل ذلك متروك لتقدير القاضي العادل أحكم الحاكمين ، وواسع الرحمة بالعالمين .

٤٨ـ ما معنى التوكل بعد الإيمان بالقدر؟ :

التوكل أحد أوصاف الإيمان وخصائصه ، وحقيقته : تفويض الأمور لله تعالى ، بعد اتخاذ الأسباب ، أو هو كما قال الغزالي رحمه الله : عبارة

---

(١) القضاء والقدر للدكتور عبد الكريم الخطيب : ص٣٢٦ .

عن اعتماد القلب على الوكيل وحده[١] . فهو ينسجم مع القدر ، لأن المؤمن يعتقد أن التقدير من الله تعالى ، والمقدرات وإن ارتبطت بالأسباب ، كالسعي لكسب الرزق مثلاً ، فهي من تقدير الله أيضاً ، ويكون السعي وتعاطي الأسباب طاعة لله تعالى ، والتوكل بعد ممارسة الأسباب لا بد منه لتحقيق النتائج ، فهو أيضاً مأمور به من الله ، واستقرار التوكل بالقلب إيمان بالله تعالى .

قال أبو القاسم القشيري : « واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب ، بعدما تحقق العبد أن التقدير من قِبَل الله تعالى ، وإن تعسَّر شيء فبتقديره ، وإن اتفق شيء فبتيسيره »[٢] .

ففي كل من التوكل والإيمان بالقدر معنى التفويض لله سبحانه ، لذا أمر الله تعالى بالتوكل في قرآنه في آيات ، منها : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء : ٨١] ومنها : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧] ومنها في تحقيق ثمرة التوكل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ ﴾ [الطلاق : ٣] والاعتماد على الله أو التوكل عليه دون الأخذ بالأسباب أو الوسائل تواكل ، وليس توكلاً . عن أنس بن مالك قال : جاء رجل على ناقة له ، فقال : يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال : « اعقلها وتوكل »[٣] فالتوكل مرتبط بالأسباب .

والإيمان بالقدر : إيمان بإيجاد الله الأشياء على وفق مقاديرها المحددة بالقضاء ، في ذراتها وصفاتها زماناً ومكاناً وكيفية . وهذا

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٢٣ ، ط العثمانية المصرية .

(٢) الرسالة القشيرية : ص١٦٣ ، ط دار الخير بدمشق .

(٣) رواه الترمذي ، وهو حسن . والمعنى : اربط الناقة ، وهو أخذ بالأسباب ، وتوكل على الله ، وهو اعتماد القلب على الله في حفظها وصونها . وفي الحديث دلالة على أن السبب لكونه فعلاً عضوياً لا ينافي التوكل لكونه فعل القلب .

يستدعي التوكل على الله فيما قدَّر وحكم ، ولا يمنع الأخذ بالأسباب ، لأن ممارسة الأسباب من الإنسان ، والقدر يكون بحسب علم الله السابق .

وذكر الغزالي أصلين للتفويض :

الأول ـ أن تعلم أن الاختيار لا يصلح ، إلا لمن كان عالماً بالأمور بجميع جهاتها ، ظاهرها وباطنها ، وإلا فلا يأمن أن يختار الهلاك والفساد على ما فيه الخير والصلاح .

والثاني ـ إذا تكفل المفوض بجميع أمور العبد ، فعليه اغتنام ذلك ، وعده أعظم نعمة ، وتقديم أوفر شكر له[1] .

٤٩ـ ما فائدة إنزال الكتب وإرسال الرسل بعد وجود القدر؟ :

أنزل الله تعالى الكتب السماوية ، وأرسل الرسل لهداية الناس ، وإنقاذهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والحق والاستقامة .

وإذا كان القدر سابقاً في الوجود ، ومعلوماً لله تعالى في الأزل كل ما يصدر عن العباد من أفعال ، فما فائدة إنزال الكتب وإرسال الرسل وإنذارهم من أرسلوا إليهم ، بعد أن علم الله تعالى أن منهم لا يفيده الإنذار؟ .

والجواب : أن للكتب والرسل فائدة ملموسة : وهي وضع النظام الإلهي موضع التنفيذ ، وإلا لم يكن للقوانين التي تصدرها الدولة مثلاً فائدة ، مع علم الدولة بجرائم الجناة وعصيان الخارجين عن النظام .

وفائدة أخرى : هي تعريف الناس بالأحكام ، وإقامة الحجة عليهم ،

---

(١) منهاج العابدين : ص٢٣٤ وما بعدها .

لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكذلك شأن المواطنين مع الدولة ، فإن المبدأ القانوني هو : ألا جريمة ولا عقوبة إلا بنص ، وهو مبدأ شرعي إلهي نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

فإن الله تعالى لو أدخل فريقاً من الناس النار ، لسابق علمه أنهم لا يؤمنون ، لاعترضوا وأنكروا ، وطالبوا بالإنذار السابق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه : ١٣٤] .

فكان إرسال الرسل لمعرفة الناس أنفسهم ، والتعرف على ما في استعداداتهم من الطوع والإباء ، فيهلك من هلك عن بينة تقام عليه ، ويحيا من يحيا عن بينة مرصودة عليه .

وذلك لأنه بعد التذكير وتبليغ الرسالة تتحرك دواعي النفوس للطوع أو للإباء ، بحسب الاستعداد الأزلي ، ويظهر الفعل أو الترك بمشيئة الله وإرادته السابقة ، التابعة للعلم ، والعلم تابع للمعلوم من الناس ، الثابت أزلاً ، وهو استعداد الإنسان ، ويترتب على ذلك النفع والضرر من الثواب والعقاب .

وإنما قامت الحجة المادية الملموسة على العصاة والمذنبين والكفار ، لأن الذين امتنعوا من الإتيان به ، وهو الإيمان بالله والطاعة ، لم يكن أمراً ممتنعاً لذاته ، وإنما لم يتحقق ذلك منهم ، فهو لإبائهم وامتناعهم منه ، وهذا الامتناع والإباء ناشئ عن استعدادهم الأزلي باختيارهم السيِّئ من الفعل ، وإن كان إباؤهم الحادث واقعاً بخلق الله تعالى ، والخلق عون على الشيء ، لا إكراه فيه .

ويلاحظ أن القَدَر مرتبط بعلم الله تعالى ، ثم تتعلق الإرادة بتخصص ما سبق العلم به ، ثم تُبرزه القدرة طبقاً للإرادة ، والقدرة منوطة

بالمشيئة ، والمشيئة تابعة لعلم الله الأزلي السابق ، والقدرة لا تبرز شيئاً إلا ما شاء الله تعالى .

وتتقرر حينئذ الحقيقة الكبرى ، وهي : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] أي ولكنه لم يشأ هدايتكم أجمعين ، أي لم يجبركم أو لم يرغمكم على الهداية ، إذ لم يسبق العلم بذلك ، لكون العلم ليس إلا كاشفاً لما في الاستعداد الأزلي للإنسان ، إما بالهداية وإما بالغواية[١] .

٥٠ـ لماذا يكلف الإنسان بالتكاليف الشرعية مع سبق القدر؟ :

التكليف الإلهي للبشر بأفعال الاستقامة والبعد عن أعمال الشر والسوء تكريم للإنسان ، لأن تحميله مسؤولية التكاليف دليل على العناية به وتقديره ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] والأمانة : هي التكاليف الشرعية ، ومن المعلوم أن ترك الإنسان بدون تكليف إهمال له ، يقول علماء الاجتماع والنفس والقانون : إذا أردت أن تقضي على إنسان فاتركه بدون عمل . وهذا واضح في حال إبقاء الموظف في وظيفته من غير إسناد أي عمل له ، وحينئذ يغلب على هذا الموظف تقديم الاستقالة .

ولا بد للإنسان المكرّم من أن يثبت ذاتيته ، ويحقق وجوده من خلال ممارسة العمل ، والقيام بالمسؤوليات ، من غير إهمال .

والإنسان حينما يكلَّف لا يتعارض تكليفه مع سبق القدر وسبق علم الله تعالى بحاله ، من طواعية أو إباء ، لأن سبق العلم الإلهي لا يمنع من

---

(١) شرح الشيخ عبد السلام للقاني المالكي لجوهرة التوحيد : ص١٥١ .

الاختيار : لجانب الخير أو لجانب الشر ، وأدوات الاختيار هي العقل الذي يميز بين الحق والباطل ، ومفاتيح المعرفة وأدواتها وهي السمع والبصر والفؤاد . والله تعالى أعان الإنسان على حسن الاختيار بوسائل أخرى من غير ذاته ، وهي هداية الله ، أي إرشاده والدلالة له ، بالتوجيهات الإلهية التي احتضنتها الكتب السماوية ، وأوضحتها الرسل الكرام ، ونبّهت عليها نصوص القرآن المجيد مثل :

ـ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] أي بيّنا له ، وأوضحنا الطريق الأقوم ، فيختار لنفسه إما الطاعة ، وهي شكر للمنعم الآمر ، وإما الكفر والجحود ، والتنكر للخالق المشرع .

ـ ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة : ١٤] أي إنه أعرف بأحوال نفسه ، وبمصلحتها ومستقبلها ، فإما أن يعمل على إنجائها من المهالك ، أو يوردها موارد الهلكة .

ـ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ـ١٠] أي لقد ظفر بالمنى ، وانتصر من طهر نفسه ، وتعهدها بالتربية والإصلاح ، وخسر من أهمل نفسه ، فلم يروضها ولم يجاهدها ولم يحملها على الخير .

ـ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٩] أي إن القرآن ومواعظه تذكير قوي للنفس ، فمن أراد النجاة سلك طريقها ، وانصاع لأوامر ربه ، واختار طريق الفلاح ورضوان الله تعالى .

ـ ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

ـ ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وليس في تنفيذ التكاليف أي جبر أو إكراه ، ولا مصادمة للقدر ؛ لأنه لا يعلم به ، ودليل الحرية في ذلك قول الله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] فهذا منع أو نفي للإكراه . وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] وهذا تقرير لحرية الإرادة .

وبدء العمل بالتكليف : من الإنسان ، ففي نطاق الهداية يقول تعالى : ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وفي حال الضلال والغواية يقول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص : ٢٦] . ويقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] .

وثمرة العمل بالتكاليف من خير أو شر ترجع في الواقع للإنسان المكلف ، لأن الاستقامة عين الكرامة ، فتحفظ على النفس قوامها وصحتها وسلامتها ، والانحراف سبيل الشقاء ، فتترتب الأضرار بالنفس في الدنيا قبل الآخرة ، بسبب مخالطة المنكرات ، واقتراف السيئات .

والتكليف ينسجم مع قدرات المكلف واستطاعته ، فلا يشق عليه القيام بها ، ولا يرهقه أمرها ، لأن المشقة فيها معتادة محتملة ، لا تفسد على النفس تصرفاتها ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقال سبحانه : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [التغابن : ١٦] .

والتكليف امتحان واختبار ، ليتميز المحسن من المسيء ، والعامل من المقصر ، والمؤمن من الكافر ، والطائع من العاصي ، وذلك التمييز

حق وعدل ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] .

والتكليف مقصور على الإنس والجن ، لأن كلاً من الصنفين يملك الفهم والإرادة الحرة .

والتكليف يشمل قضايا العقيدة أو الإيمان ، وأصول الشرائع والأحكام في الأخلاق والعبادات والمعاملات ونظام الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والعلاقات الدولية .

وتنظم شريعة الإسلام خلافاً لغيرها العلاقات الثلاث وتحقق الأهداف الثلاثة : علاقة الإنسان بخالقه ، عن طريق العبادة ، وعلاقة الإنسان مع نفسه ، عن طريق الآداب والأخلاق ، وعلاقة الإنسان مع غيره ، عن طريق المعاملات أو العقود والتصرفات .

وتكون ثمرة التكليف الضرورية مسؤولية الإنسان عن أفعاله ، من خير أو شر ، طاعة أو عصيان ، إيمان أو كفر وضلال .

والإنسان في إطاعة التكاليف وتنفيذها ، وفي مخالفتها والإعراض عنها ، وتعرّضه للثواب والعقاب أو الحساب والجزاء ، يملك إرادة حرة ، ومناط الثواب والعقاب : هو حرية الإرادة ، دون جبر ولا قسر ولا إكراه ، كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

قال ابن تيمية : ومن احتج بالقدر على ترك مأمور ، أو فعل محظور ، أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد والوعيد ، فهو أعظم ضلالاً وافتراء على الله ومخالفة لدين الله ، من أولئك القدرية[١] .

---

(١) الفتاوى : ٨/ ٤٥٢ .

٥١ـ لماذا خلق الإنسان؟ :

سؤال يتردد على ألسنة الكثيرين من الناس ، حينما يعلمون أن الله تعالى عالم بكل شيء من الأقوال والأفعال الصادرة عنهم ، وأن القدر استقر ، والقلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة .

والجواب واضح وسهل : وهو أن مشيئة الله تعالى اقتضت عمارة الكون ، وتقدم الحياة ، وإثبات ذاتية الإنسان ودوره ورسالته في الدنيا ، فلم يهمله الله تعالى ، وإنما كرَّمه حين أوجده وجعله خليفة في الأرض ، كما جاء في نصوص قرآنية كثيرة منها : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ومنها : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٥٥] ومنها : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] .

وفي الجانب العبادي ، ومن أجل ضبط النظام البشري بممارسات صحيحة ، تعمل على تهذيب الإنسان ورقيه ، وتخلقه بالأخلاق الكريمة ، حصر الحق تعالى مهمة إيجاد الإنسان والجان بالقيام بعباده الخالق المنعم ، فقال :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

والعبادة المقبولة تتطلب قاعدة جذرية ، وهي : تمام الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، فلا تقبل عبادة عند الله تعالى إلا في ظل شجرة الإيمان بفروعه . كما تتطلب العبادة توفير النظام الصالح للبشرية ، وهو تطبيق أحكام الشريعة من حلال وحرام ، وفرض ومحظور .

وإذا توافرت العقيدة الصحيحة ، والعبادة السليمة ، والنظام الأصلح ، سعد الإنسان في دنياه ، وظفر بجنة الخلد في أخراه .

٥٢ـ هل يطلب الرضا بالقدر؟ :

تقدير الله للأشياء والأفعال والأقوال صادر عن حكمة إلهية عميقة وعظيمة ، تشتمل على تحقيق الخير للإنسان ، ورعاية مصلحته ، فكان لا بد من الرضا بالقضاء والقدر ، لتحقيق السعادة والاطمئنان ، وترك التردد والملامة ، وفتح منفذ للشيطان ، ليتسلط على الإنسان ، فيشككه في عقيدته بربه ، ويوسوس له بالشر ، فيجرفه عن جادة الصلاح إلى طريق الغي والضلال .

والرضا بالقدر أمر ثابت في الشرع ، فقال النبي ﷺ : « من سعادة ابن آدم : رضاه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله . ومن شقاوة ابن آدم : سَخَطُه بما قضى الله »(١) .

وقال الرسول النبي ﷺ أيضاً :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجَزْ ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان »(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : على العبد أن يؤمن بالقدر ، وليس له أن يحتج به على الله ، فالإيمان به هدى ، والاحتجاج به على الله ضلال وغي ، بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صباراً شكوراً ، صبوراً على البلاء ، شكوراً على الرخاء ، كما قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٢ـ٢٣] وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] قالوا : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلِّم .

وعلى العبد إذا أذنب أن يستغفر ويتوب ، ولا يحتج على الله بالقدر ، ولا يقول : أي ذنب لي ، وقد قدر علي هذا الذنب ، بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب ، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته ، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه[١] .

٥٣ـ ما الفرق بين الإرادة والقدرة والأمر والعلم والرضا؟ :

القدرة غير الإرادة ، وكلاهما غير الأمر والعلم والرضا[٢] .

القدرة : صفة أزلية يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه ، على وفق الإرادة . وتتعلق بالممكنات إيجاداً وإعداماً ، والقادر : هو الذي إن شاء فعل ، وإن شاء ترك ، فهو المتمكن من الفعل والترك .

والإرادة : صفة أزلية (قديمة) زائدة في الذات ، قائمة بها ، شأنها التخصيص ، أي تخصيص كل ممكن بما يجوز عليه ، وتتعلق بالممكنات تعلق تخصيص ، والمريد : هو الذي تتوجه إرادته على المعدوم فتوجده .

فكل ما خصصه الله تعالى بإرادته أبرزه بقدرته .

والرضا : هو قبول الشيء والإثابة عليه . والإرادة ليست عين

---

(١) الفتاوى الكبرى ٨/ ٢٣٧ .

(٢) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقاني : ص٨٩ـ٩٤ .

الرضا ، ولا مستلزمة له ، فإن الإرادة عند أهل السنة : قد تتعلق بما لا يرضى الله به ، ككفر أبي جهل وغيره وصدور المعاصي من الناس ، فإنه سبحانه أراده ، ولو لم يرده لم يقع ، ولا يرضى به ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر : ٧]

ولا يأمر بالفحشاء ، لقوله سبحانه : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النحل : ٩٠] .

والأمر : اقتضاء (طلب) فعل غير كفّ (منع) ، بلفظ يدل عليه . وهو غير الإرادة ، فقد يريد الله الشيء ، ولا يأمر به ، مثل كفر من علم الله تعالى منهم الإيمان ، فإنه أراده منهم وأمرهم به . وقد لا يريد الشيء ولا يأمر به ، ككفر من علم الله تعالى إيمانهم ، فإنه سبحانه لم يرده ولم يأمرهم به . وقد يأمر الله سبحانه بالشيء ولا يريده ، كالإيمان من أبي لهب ، والطاعة من عامة العصاة ، فإنه سبحانه أمر أبا لهب بالإيمان ، ولم يرده منه ، وأمر عامة المذنبين بالطاعة ، ولم يردها منهم .

والعلم لله تعالى : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، تنكشف بها المعلومات عند تعلّقه بها . أو هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات ، على وجه الإحاطة على ما هي عليه ، من غير سبق خفاء . والعلم مجرد إحاطة ، لا تلتبس بالقدرة أو الإرادة ، أو الأمر أو العلم .

والخلاصة : الإرادة غير الأمر ، فلا تلازم بينهما ، والإرادة غير الرضا والعلم ، والقدرة غير الإرادة ، فالإرادة من شأنها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، من وجود ، وعدم ، وتكيف ، من غير مؤثر خارجي .

والقدرة : يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه ، وتكييفه . فالإرادة أصل ، والقدرة أداة تنفيذ ، والتنفيذ لا يتم إلا ما شاء الله تعالى . وإذا ورد أن الله يشاء المعصية فهو بمعنى أنه شاءها خلقاً ، والواقع أنه لا يحبها ولا يرضاها أمراً .

٥٤ـ هل هناك فرق بين الإرادة والمشيئة؟ :

إيماننا أو عقيدتنا أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما من شيء في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات[١] .

والحق أن الله تعالى لا يريد إلا ما حسن من الأفعال ، ولا يشاء إلا الجميل من الأعمال ، ولا يريد القبائح ، ولا يشاء الفواحش ، تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً[٢] ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣١] .

والإرادة في علم التوحيد كما تقدم : صفة أزلية قائمة بذات الله سبحانه ، من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من وجود وعدم ، وصفة وزمان ومكان وجهة ، وخرج بالممكن : الواجب والمستحيل ، فلا تتعلق بهما الإرادة ، بخلاف القدرة . وشمل الممكن : الخير والشر ، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن الإرادة لا تتعلق بالشرور والقبائح .

ومذهب الجمهور : اتحاد المشيئة والإرادة ، وأنه يطلق أحدهما

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ٣/ ١٤٩ ، ٨/ ٢٣٨ .

(٢) تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد للشيخ المفيد : ص٣٥ .

على الآخر ، والمعنى : أن كل ما يشاؤه الله فهو من حيث إنه مشاء له مراد له ، وكل ما يريده فهو من حيث إنه مراد له مشاء له ، خلافاً لمن فرق بينهما[١] .

فالإرادة : هي الأصل في إنجاز الممكنات على صفة معينة ، والقدرة تبرز ما اقتضته الإرادة ، على طبقها وهدفها ، ولا تبرز القدرة شيئاً إلا ما شاء الله ، فالمشيئة : هي الموجّه الأخير لمراد الله تعالى ، وحينئذ يكون ترتيب صفات الله كالتالي ، العلم ، ثم الإرادة والمشيئة ، ثم القدرة ، ثم الرضا .

وللعبد مشيئة للخير والشر ، وله قدرة على كل منهما ، وهو العامل لهذا وهذا ، والله خالق ذلك كله ، لا خالق غيره ، ولا رب سواه . ومشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ [الإنسان : ٢٩ـ٣١] وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] [التكوير : ٢٧ـ٢٩] . أي وما تشاؤون شيئاً أو اتخاذ السبيل إلا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئتكم ، فمجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل ، كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية ، إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب والتحصيل ، وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل[٣] .

---

(١) شرح جوهرة التوحيد : ص١١٥ .
(٢) الفتاوى ، المرجع السابق : ٨/ ٢٣٨ .
(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ١٦٧ وما بعدها .

٥٥ـ ما معنى الآية ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ؟ :

المعنى : ألم نبين للإنسان ونعرفه طريق الخير والشر ، حيث أودعنا في فطرته السليمة أداة التمييز بينهما ، وجعلنا له من العقل والفكر والحس ما يستطيع به إدراك محاسن الخير ، ومفاسد الشر ، وأبعاد كل منهما . وعبر الله تعالى عن هذين الطريقين بالنجدين : وهما الطريقان المرتفعان ، للدلالة على صعوبتهما ووعورتهما ، واحتياجهما إلى مجاهدة النفس ، لعبورهما بشدة وسرعة .

فلا يراد بالآية من الهداية إلا الدلالة والإرشاد لكلا الطريقين ، وترك الاختيار للإنسان ، وليس في ذلك دلالة على الجبر والإكراه .

٥٦ـ هل القدر يلازم الخلْق؟ :

القدر : بمعنى (إيجاد الله الأشياء بحسب مقاديرها المحددة في القضاء ذاتاً وصفة وزماناً ومكاناً وفعلاً وسبباً) ملازم لخلق الإنسان ، منذ بدء الخليقة في عهد آدم عليه السلام ، عملاً بما سبق في علم الله سبحانه في عباده ، فيكون الناس فريقين : أهل الجنة وأهل النار ، بدليل أحاديث كثيرة ، منها :

ـ عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « خلق الله عز وجل آدم حين خلقه ، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاً ، كأنهم الذَّرّ . وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذرية سوداً كأنهم الحُمَم[1] ، فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالي »[2] .

ـ وعن عبد الرحمن بن قتادة السُّلَمي أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أي : الفحم والرماد .

(٢) رواه أحمد والبزار والطبراني ، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ١٨٥) .

يقول : « إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، فقال : هؤلاء في الجنة ، ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ، ولا أبالي ، فقال قائل : يا رسول الله ، فعلامَ ذا نعمل؟ قال : على مواقع القدر »[١] .

٥٧ـ كيف أخذ الله الميثاق من الناس وهم في عالم الذر قبل الخلق الفعلي؟ :

لقد أقر البشر قاطبة بأن الله وحده لا شريك له هو ربهم الخالق ، وهم في عالم الذَّر ، فيكون ما يحدث من الكفر أو الشرك من بعضهم بعد الولادة انتكاساً للفطرة ، ونقضاً للعهد والميثاق القديم ، وخروجاً عن الإقرار السابق بألوهية الله تعالى وربوبيته ، وتأثراً بالتربية المنحرفة والبيئة الجائرة .

وهذا ما نصت عليه الآية القرآنية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

ويؤيده ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنَعْمان[٢] يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه ، ثم كلمهم قُبُلاً[٣] قال : ألست بربكم؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون »[٤] .

---

(١) رواه أحمد ، ورجاله ثقات (المرجع السابق ص١٨٦) .
(٢) واد في طريق الطائف ، يخرج إلى عرفات .
(٣) أي : عِيَاناً ومقابلة ، لا من وراء حجاب ، أو يوكل ملكاً .
(٤) رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد : ٧/ ١٨٨ـ١٨٩) .

٥٨ـ هل أهل الجنة وأهل النار معلومون حصراً عند الله؟ :

القدر يكون مع الخلق في عالم الذَّر ، كما تقدم ، فيكون أهل الجنة وأهل النار معلومين حصراً في علم الله تعالى ، وأعلم الله بهم نبيه محمداً ﷺ ، عن طريق جبريل عليه السلام ، بدليل الوارد في الحديث الآتي :

عن أنس قال : خرج رسول الله ﷺ ، وهو غضبان ، فخطب الناس ، فقال : « لا تسألوني عن شيء اليوم إلا أخبرتكم به ، ونحن نرى أن جبريل معه ، فقام إليه رجل من قريش ، فقال : يا رسول الله ، أفي الجنة أنا أم في النار؟ قال : في الجنة ، قال : ثم قام إليه آخر ، فقال : أفي الجنة أنا أم في النار؟ قال : في النار . ثم قال : اسكتوا عني ما سكتّ عنكم ، فلولا أن لا تدافعوا لأخبرتكم بملئكم من أهل النار ، حتى تعرفوهم عند الموت ، ولو أُمرت أن أفعل لفعلت .

إلى أن قال : فقال عمر : يا رسول الله ، إنا كنا حديثي عهد بجاهلية ، فلا تبد علينا سوآتنا ، فاعف ، عفا الله عنك »[1] .

٥٩ـ هل عصى آدم عليه السلام ربه بالقدر السابق أو بما عمل (محاجّة آدم وموسى)؟ :

قضية معصية آدم عليه السلام شغلت البشرية طويلاً ، فهل كانت معصيته بمقتضى القدر السابق في علم الله ، أو بالعمل الذي اقترفه ، حين أكل هو وزوجه من شجرة الخلد التي منعهما الله من الأكل منها؟ وهذا

---

(١) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ١٨٨) .

الموضوع معروف في علم الحديث بقصة محاجّة آدم وموسى عليهما السلام .

أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« خاجَّ آدم موسى ، فقال : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال : فقال آدم لموسى : أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومُني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ أو قدَّره علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ : فحجَّ آدم موسى » .

وفي رواية قال : « احتجَّ آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم ، أنت أبونا ، خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخطَّ لك بيده ، أتلومُني على أمر قدّره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين عاماً؟ قال النبي ﷺ : فحَجَّ آدم موسى ، فحَجَّ آدم موسى ، فحجَّ آدم موسى »[1] .

أي إن معصية آدم عليه السلام معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في اللوح المحفوظ ، ولكن ذلك في علم الله تعالى ، والعلم لا يقتضي الإجبار ، فهو قدر معلوم سابق قبل خلق آدم ، ونسبت المعصية لآدم ، لأنه خالف نهي الله عن الأكل من شجرة الخلد ، والعصيان اقترن بمشيئة الله وإرادته . أما المعصية فتاب آدم منها ، وتقبل الله توبته ، وانتهت المشكلة ، فلا يقال : يتحمل البشر كلهم آثار تلك المعصية ، لأن المسؤولية شخصية أو فردية ، وكل امرىء بما كسب رهين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

---

(١) جامع الأصول ١٠/ ٥٢٣ـ٥٢٦ ، مجمع الزوائد ٧/ ١٩١ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء »[١] .

٦٠ـ هل من الممكن لنا العلم بحكمة القدر؟ :

القدر شيء سابق في علم الله تعالى ، قبل وجود آدم عليه السلام في الدنيا ، وحكمته مختصة بالله عز وجل ، ومجهولة عنا ، وفي ذلك الخير ، لأن الإنسان يصير متكلاً على المقدور أو عدوّاً ضارياً لغيره من الناس إذا علم سبب شقائه . والدليل هو الحديث الآتي :

عن مالك بن أنس رحمه الله قال : « بلغني أنه قيل لإياس بن معاوية : ما رأيك في القدر؟ قال : رأي ابنتي » يريد : لا يعلم سِرَّه إلا الله . وبه كان يُضْرب المثل في الفهم .

وقال رجل : وقد سئل عن أمر ما من القدر ، فقال : ألست تؤمن بالله؟ قال : نعم ، قال : فحسبُك[٢] .

٦١ـ هل يجوز الجدل أو النزاع في القدر؟ :

لا فائدة ولا جدوى من الجدال في شأن القدر ، أو في التنازع فيه ، لأنه خارج عن طاقة الإنسان وعقله وإدراكه ، ولقصْره على الله تعالى . أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في القَدَر ، فغضب حتى احمرّ وجهه . كأنما فُقئ في وجهه حَبّ الرُّمّان . فقال : أفبهذا أُمرتم ، أم بهذا أرسلت

---

(١) رواه مسلم والترمذي (جامع الأصول ١٠/ ٥٢٧) .
(٢) أخرجه رَزين (جامع الأصول ١٠/ ٥٢٨) .

إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه » .

٦٢ـ هل خلق الله كل صانع وصنعته؟ :

جميع أفعال الإنسان مخلوقة لله عز وجل ، سواء أنشطته العادية من قيام وقعود ، وأكل وشرب ونحوها ، أو ممارساته الوظيفية أو الحرفية ، أو الصناعية أو الزراعية أو غير ذلك ، لما رواه حذيفة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله كل صانع وصنعته »[١] .

٦٣ـ هل يتغير الخلُق بالتخلق؟ :

الغالب أن الطبع يغلب التطبع ، ويصعب تغيير الخلُق المطبوع ، بدليل ما روي عن عبد الله بن ربيعة قال : « كنا عند عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فذكر القوم رجلاً ، فذكروا من خُلقه ، فقال عبد الله : أرأيتم لو قطعتم رأسه ، أكنتم تستطيعون أن تعيدوه؟ قالوا : لا ، قال : فيده؟ قالوا : لا ، قال : فرِجْله؟ قالوا : لا ، قال : فإنكم لن تستطيعوا أن تغيروا خُلقه حتى تُغيِّروا خَلْقه[٢] .

---

(١) أخرجه البزار ، ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسين بن الكردي وهو ثقة (مجمع الزوائد ٧/ ١٩٧) .

(٢) رواه الطبراني ، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ١٩٦) ، ولكن هذا إن ترك الإنسان نفسه وأهملها ، فلم يروضها أو لم يزكها ويعودها الفضائل ، أما إن جاهد نفسه أو روضها ، فيمكن تعديل غرائزه وطباعه وتوجيهها وجهة صالحة ، لأن التربية والتعليم أمران مفيدان أيضاً .

٦٤ـ ما المسائل المفروغ منها؟ :

هناك أمور خمسة قد فرغ منها ، وهي : الأجل ، والرزق ، والأثر ، والمضجع ، والعمل .

عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فرغ الله إلى كل عبد من خمس : من أجَله ، ورزقه ، وأثره ، ومضجعه ، وفي رواية : وعمله »[1] .

وفي أحاديث أخرى : أن المقدرات المختصة بالكليات محصورة في أربعة أمور : العمر ، والرزق ، والأجل ، والشقاء والسعادة ، وهذه لا تتبدل . وأما المقدرات الجزئيات التفصيلية فهي لا تنحصر ، وحصولها للإنسان يتوقف على أسباب وشروط ، منها الدعاء والكسب والسعي والعمل ، فإن هذه لم يقدر حصولها دون شرط . وهذه شرع الدعاء فيها ، وأما الكليات فجاء النهي عن الدعاء فيها .

٦٥ـ هل يموت الإنسان في مكان غير مقدر له؟ :

النص القرآني صريح في تبيان مفاتح الغيب الخمسة المقصور علمها على الله تعالى وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

ويؤيده حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات (المرجع السابق ص١٩٥) يقال : ضَجَع الرجل : وضع جنبه بالأرض . والأثر : الأجل ، وما يخلّفه السابق من بعده.

خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤] »[١] .

وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعلت منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة »[٢] .

٦٦ـ هل يموت القتيل قبل انتهاء أجله؟ :

إن الله تعالى يخلق الأفعال عند وجود أسبابها ، من غير نقص ولا زيادة ، وحينئذ يكون من المقرر أن أجل الإنسان في الحياة لا يزيد ولا ينقص ، كما قال تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

وقد قرر العلماء أن القتيل يموت بأجله ، أي : عند انتهاء أجله ، ويكون تقدير القدر تهيئة الأسباب من اعتداء أو غيره ، فيتحقق الموت ، دون تأخير ساعة ولا تقديم . وكذلك الذي يموت جوعاً أو شبعاً وتخمة ، فذلك أَجَل حضره[٣] .

٦٧ـ هل يزيد العمر أو ينقص؟ :

لا يزيد العمر المقدَّر للإنسان ولا ينقص ، كما صرحت بذلك الآيتان السابقتان وغيرهما ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١] فيراد به حكاية ما عليه أعراف الناس وترداد أقوالهم حين يقولون : فلان استوفى عمره ، وفلان

---

(١) رواه أحمد والبخاري . وروي عن صحابة آخرين .

(٢) رواه الطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ٧/ ١٩٦ .

(٣) منهاج العابدين للغزالي : ص٢٣٢ .

المتوفى في صغره أو شبابه لم يستكمل عمره ولا تمتع بحياته .

والله سبحانه سمى في الآية بعض الناس معمَّراً بما هو صائر إليه ، أي ما يمدّ في عمر أحد ، وما ينقص من عمر آخر إلا في صحيفة كل إنسان ، سواء أكان من أصحاب الأعمار الطويلة أم القصيرة الأجل ، فما قضاه في حياته هو عمره المقدَّر له في علم الله تعالى ، وتطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره ، لأسباب سابقة يعلمها الله ، فمن أطال الله عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التطويل ، كصلة الرحم والصدقة والدعاء ، ومن قصر عمره ، فلأنه يفعل ما يقتضي التقصير ، كالإكثار من معاصي الله . وذلك النظام المرتب للعالم سهل يسير على الله ، لديه علمه جملة وتفصيلاً[١] .

إن الرقم العددي أو الحسابي كخمسين أو ستين سنة لا يتغير عما قدِّر للإنسان ، وإنما الزيادة بسبب بعض الأعمال الصالحة ، كصلة الرحم ، فهي تكون بالكيف لا بالعدد ، أي : يكون المراد من الزيادة هو البركة في العمر ، وإضفاء الشعور بالسعادة وتمام الهناءة .

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سرّه أن يُبسَط له في رزقه ، وينسأ له[٢] في أثره ، فليصل رحمه » .

وذكر أبو بكر بن مقسم في جزئه عن عمرو بن عوف رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « صدقة المرء المسلم تزيد في العمر ، وتمنع ميتة السوء ، ويُذهب الله تعالى بها الفخر والكبر »[٣] .

والخلاصة : إن الزيادة في العمر إما أن العمر معلّق على عمل ،

---

(١) التفسير المنير للمؤلف ٢٢/٢٣٨ .

(٢) أي يؤخر له في أجله .

(٣) ذكره في كنز العمال ١٦٠٦٢ .

ونقص العمر إذا لم يعمله ، وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير ، لأنه في تقديره تعالى معلَّق أيضاً ، وإن كان ما في علمه تعالى الأزلي وقضائه المبرم لا يعتريه محو ، ولذا جاز الدعاء بطول العمر . وإما أن زيادة العمر تعني البركة في العمر والسعادة في العيش ، فإن فعل الخير وتشييد الصالحات والصدقة وصلة الرحم ، تبارك في العمر وتنميه ، وتجلب الصحة والسعادة للبار المحسن .

قال الآلوسي : والحق عندي أن ما في العلم الأزلي المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر : لا يتغير ، ويجب أن يقع كما علم ، وإلا يلزم الانقلاب . وما يتبادر منه خلاف ذلك إذا صح : مؤول . وخبر « الصدقة تزيد في العمر » قيل : إنه خبر آحاد فلا يعارض القطعيات . وقيل : المراد أن الصدقة وكذا غيرها من الطاعات تزيد فيما هو المقصود الأهم من العمر : وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التي بها تستكمل النفوس الإنسانية ، فتفوز بالسعادة الأبدية . وحكم الدعاء وفائدته حكم سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفظ من شدة الحر والبرد مثلاً[1] .

٦٨ـ هل يزيد الرزق أو ينقص خلافاً للقدر؟ :

الرزق مشروط بالسعي ، فإذا تحقق السعي أو البحث عن موارد الرزق والعمل ، تحقق الرزق ، لأن تحصيل الرزق خاضع لمبدأ قانون السببية ، أي : ارتباط الأسباب بالمسببات ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] والسعي لا يجدي شيئاً إلا بتيسير الله ومشيئته ، والسعي للتسبب والتكسب

(١) تفسير الآلوسي ٢٢/١٧٨ .

لا ينافي التوكل . وإذا تحققت الأسباب ، لم يمت إنسان حتى يستوفي رزقه .

قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس اتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، خذوا ما حلّ ، ودعوا ما حَرُم »(١) . وفي رواية : « لا تستبطئوا الرزق ، فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزقٍ هُوَ لَهُ ، فأجملوا في الطلب : أخْذ الحلال ، وتَرْك الحرام »(٢) . وفي رواية : « هذا رسول رب العالمين جبريل ﷺ نفَثَ في رُوعي(٣) أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها . . . » الحديث(٤) .

والرزق كالأجل لا يزيد ولا ينقص ، خلافاً لما هو مكتوب في اللوح المحفوظ ، وبحسب قدر الله وعلمه . وأما التوسعة في الرزق والدعاء فيه ، فيراد به البركة في الرزق وحسن الإنفاق وتيسير الوصول إليه ، والزيادة في الرزق إن حدث الدعاء ونحوه ، لتعلق أمر بأمر .

والرزق مع الاستقامة يأتي إلى الإنسان ولو مع ضعفه ، بعد تعاطي الأسباب .

قال النبي ﷺ : « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله »(٥) .

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له عن جابر رضي الله عنه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٣٤) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه عن جابر أيضاً ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

(٣) ألقى وأوحى في قلبي ونفسي .

(٤) رواه البزار عن حذيفة رضي الله عنه ، ورواه الحاكم عن ابن مسعود بلفظ آخر .

(٥) رواه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : ابن حبان في صحيحه والبزار ، ورواه الطبراني بإسناد جيد ، إلا أنه قال : « إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله » =

ومما يدل على تقدير الرزق : قول الإمام الغزالي رحمه الله حيث قال : أن تعلم أن الرزق مقسوم ، صح ذلك من كتاب الله ، وأخبار رسول الله ﷺ ، وتعلم أن قسمته لا تتغير ولا تتبدل ، إن أنكرت القسمة أو جوزت نقضها ، فذلك باب الكفر تقرعه . وتعلم أن الرزق لا يفوت من قُدِّر له بحال[1] .

وهذا مستمد من قول الله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الرزق : هل يزيد أو ينقص ، وهل هو ما أكل أو ملكه العبد ؟ فأجاب : الرزق نوعان :

أحدهما : ما علمه الله أنه يرزقه ، فهذا لا يتغير .

والثاني : ما كتبه وأعلم به الملائكة ، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب ، فإن الله يأمر الملائكة أن تكتب للعبد رزقاً ، وإن وصل رحمه ، زاده الله على ذلك ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من سرَّه أن يبسط له في رزقه ، ويُنْسأ له في أثره ، فليصل رحمه » .

وكذلك عُمْر داود زاد ستين سنة ، فجعله الله مئة ، بعد أن كان أربعين . ومن هذا الباب قول عمر وابنه عبد الله : اللهم إن كنت كتبتني شقياً ، فامحني واكتبني سعيداً ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت . وهذا على رأي أن العمر والرزق ونحوهما معلَّقان على شيء آخر ، من التفاصيل ، أما في علم الله فلا يتغير القدر .

= (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٣٥) .

(١) منهاج العابدين : ص٢٢٨ ، ٢٣٠ .

ومن هذا الباب قوله تعالى عن نوح : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح : ٣ـ٤] .

والأسباب التي يحصل بها الرزق : هي من جملة ما قدره الله وكتبه . وقد يحصل الرزق بكسب وسعي ، وقد يحصل من غير اكتساب . والسعي سعيان : سعي عملي كالصناعة والزراعة والتجارة . وسعي بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك[١] .

واستنبط الغزالي من الأخبار الواردة في الرزق ثلاث فوائد :

إحداها : أن تعلم أن الرزق لا يفوت من قدِّر له بحال .

والثانية : أن تعلم أن أمر الرزق والتوكل لمهم جداً ، وأن للشيطان فيه وساوس عظيمة .

والثالثة : أن تعلم أن الأمر لا يتم إلا بالجد المحض والمجاهدة البالغة[٢] .

٦٩ـ هل يتعرض الإنسان لحرمان الرزق أحياناً؟ :

من المؤكد أن المعاصي والآثام تكون سبباً في تضييق الرزق ونزع البركة منه ، والله تعالى يحرم العاصي من رضاه وخيراته ، وقديماً قالوا : إن المعاصي تزيل النعم ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] وشُكْر النعم طاعة الله ، والإقبال على العمل بالكتاب والسنة .

ودليل احتمال الحرمان من الرزق : قول النبي ﷺ : « لا يردّ القدر

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٥٤٠ .

(٢) منهاج العابدين : ص٢٢٨ .

إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر[١] ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يذنبه »[٢] .

٧٠ـ هل يرزق الله الحلال والحرام؟ :

الرزق : هو ما أباحه الله تعالى للعبد ، وملّكه إياه ، ويراد به ما يتغذى به الإنسان .

والرزق نوعان : حلال وحرام .

أما الحلال : فهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ [المنافقون : ١٠] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] هذا الرزق هو الحلال ، وهو الذي ملّكه الله للإنسان ، والمملوك لا يدخل فيه الخمر والحرام .

وأما الحرام : فهو الذي حرّمه الله على العبد ، كالخمر ، ولا يملكه الإنسان والحيوان ، ومنه رزق البهائم ، فهي تنتفع بالشيء ، ولا تملكه ، ولا يوصف بأنه محرم عليها ، لأنه لا تكليف على البهائم . وهو كقوله تعالى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] والرزق الحرام : مما قدره الله ، وكتبته الملائكة ، وهو مما دخل تحت مشيئة الله وخلقه ، وهو مع ذلك قد حرمه ونهى عنه ، ويستحق فاعله ما هو أهله من الغضب والذم والعقوبة .

والعبد قد يأكل الحلال والحرام ، فهو رزق باعتبار الانتفاع به ، لا باعتبار تملكه ، وما اكتسبه العبد ولم ينتفع به هو رزق باعتبار تملكه ،

---

(١) أي : فعل الخير .

(٢) رواه من حديث ثوبان رضي الله عنه : ابن حبان في صحيحه ، والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨١) .

لا باعتبار الانتفاع به ، مثل : مال التركة هو في الحقيقة مال الوارث لا مال المورث .

٧١ـ ما حقيقة الإيمان بالقدر؟ :

سبق الكلام عن هذا في الجملة ، وتحديد هذه الحقيقة ثبت في السنة النبوية .

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه »[١] .

٧٢ـ كيف يكون التسليم لما قدَّره الله؟ :

ورد في السنة أمثلة لكيفية التسليم بقدر الله تعالى ، منها :

ـ عن سعيد بن جبير قال : قالت بنو إسرائيل : يا موسى يخلق ربك عز وجل خلقاً ، ثم يعذبهم ، فأوحى الله إليه أن ازرع ، فزرع ، ثم قال : احصد ، فحصد ، ثم قال : درّه فدرّاه ، فاجتمع القماش[٢] ، فقال : لأي شيء يصلح هذا؟ قال : للنار . قال : فكذلك لا أعذب من خلقي إلا من استأهل النار[٣] .

ـ عن ابن عباس قال : لما بعث الله جل ذكره موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة قال : اللهم إنك رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأُطعت ، ولو شئت أن لا تُعصى ما عُصيت ، وأنت تحب أن تطاع ،

---

(١) رواه أحمد والطبراني ، ورجاله ثقات .

(٢) ما على الأرض من الفتات ، وهو أيضاً متاع البيت .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٢٠١) .

وأنت في ذلك تُعصى ، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه : إني لا أُسأل عما أفعل ، وهم يسألون . . الحديث[١] .

٧٣ـ هل هناك نهي عن الكلام في القدر؟ :

نهى النبي ﷺ عن الخوض في القدر ، بعد أن أطلعهم على حقيقته ومعناه .

ـ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا »[٢] .

ـ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « آخر الكلام في القدر : شرار هذه الأمة »[٣] .

٧٤ـ ما حكم المكذب بالقدر؟ :

سبق الكلام في السؤال العاشر عن القدرية الذين يكذبون بالقدر ، وحكمهم أنهم فسقة عصاة ليسوا من أهل السنة ، بدليل ما أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، المتقدم ، وفيه : « إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « القدرية والمرجئة

---

(١) رواه الطبراني ، وفي أحد رجاله كلام مختلف فيه (المرجع السابق ص١٩٩ وما بعدها) .

(٢) رواه الطبراني في (المرجع السابق : ص٢٠٢) .

(٣) رواه البزار والطبراني في الأوسط (المرجع والمكان السابق) .

مجوس هذه الأمة ، فإن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[١] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[٢] .

وفي رواية لأحمد : « إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وفي رواية لابن وهب ، قال رسول الله ﷺ : « فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره ، أحرقه الله بالنار » .

واستنبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الأحاديث : إحباط عمل من لم يؤمن بالقدر[٣] .

٧٥ـ هل كل شيء بقدر؟ :

سبق البحث في هذا في الجملة ، وذكرت أحاديث في ذلك ، منها حديث « كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْس »[٤] أي حتى القوة والبلادة والعجز من قدر الله . وهذا رد على من يثبت القدرة لغير الله تعالى مطلقاً ، ويقول : إن أفعال العباد مستندة إلى قدرة العبد واختياره . وعلى هذا تكون أكساب العباد وأفعالهم كلها بتقدير خالقهم ، حتى النشاط

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٥) .
(٢) رواه أبو داود (جامع الأصول ١٠/ ٥٢٦) .
(٣) كتاب التوحيد : ١٧٤ وما بعدها .
(٤) رواه أحمد ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورويت أحاديث فيها كلام في الموضوع (مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٨) والكَيْس : النشاط والقوة والحذق .

المؤدي لتحقيق الغاية ، والعجز الذي يتأخر به عن إدراكها . قال ابن حجر : معناه أن كل شيء لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته[١] .

٧٦ـ هل تربط الأفعال بمشيئة غير الله تعالى؟ :

المشيئة المطلقة لله عز وجل ، فيربط القدر فيها ، وأما الإنسان فله مشيئة جزئية تابعة لمشيئة الله تعالى ، وتقترن بها عند مباشرة الأفعال ، وينبني عليها صحة المسؤولية عنها في الدنيا والآخرة ، لكن لا يقال : ما شاء الله وشاء غيره[٢] .

٧٧ـ هل تجري الطير بقدر؟ :

تجري الطير وغيرها بقدر ، لما روت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « الطير تجري بقدر »[٣] .

٧٨ـ هل يتقدم وقوع القدر أو يتأخر؟ :

القدر في علم الله تعالى وفي الواقع الحادث لا يتقدم ولا يتأخر لحظة ، لارتباط ذلك بالنظام العام الكوني ، فالعمر أو الأجل ، والرزق والمنصب ، وجميع أفعال الإنسان ، لا تتبدل ولا تتغير ، لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] .

---

(١) فتح القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ٥/ ٢٢ .
(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٨ .
(٣) رواه البزار (مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٩) .

وقوله سبحانه : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : ٦٧] أي لكل حادث وقت معين وزمن محدد ، فالآيات تأتي في وقتها لحكمة وفي زمن يعلمه الله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] . وكذلك لكل أمر قضاه الله كتاب مكتوب عند الله تعالى ، وكل شيء بقضاء الله وقدره ، والأمور مرهونة بأوقاتها .

٧٩ـ هل هناك مَحْو في المقادير أو تغيُّر أو تبدُّل؟ :

هناك محو وتغيير في بعض المقادير دون بعض ، لقوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٩] أي يمحو الله من المكتوب بعض المقادير : وهو ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به ، ويثبت ما يشاء تأخيره إلى وقته ، وعند الله أصل الكتاب الذي لا يتغير منه شيء وهو اللوح المحفوظ : (وهو الذي لا يتغير منه شيء ، وهو ما كتبه في الأزل ، فما من كائن إلا وهو مكتوب فيه) أو أن أم الكتاب : هو العلم الإلهي ، فما علمه الله في الأزل لا يتبدل .

والمكتوب في الأزل نوعان[1] :

١ـ ما لا يتغير ولا يتبدل : وهو أصول الأشياء ، وهي الخَلْق والخُلُق ، والأجل في الدنيا ، والرزق ، والسعادة والشقاوة ، وقيام الساعة ، وأجل بقاء الناس في القبور ، وكل ما كتب من الآجال ونحوها .

سئل ابن عباس عن أم الكتاب ، فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خَلْقه عاملون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، ولا تبديل في علم الله .

---

(١) كتابنا التفسير المنير : ١٣/ ١٨٠ـ١٨٩ .

٢ـ ما يتغير ويتبدل : وهو بعض المقادير أو الأشياء والأفعال المعلَّقة على شيء أو سبب آخر . وهو بعض الشرائع التي ينسخها ، لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] أي ينسخ الله ما شاء من الشرائع ، ويثبت بدله ما أراد إثباته وما رأى المصلحة في إثباته ، وتقريره في القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ، أو يتركه غير منسوخ .

ومما يتغير : بعض الأحوال والأفعال من بركة في رزق ، أو سعادة في عمر أو شقاوة ، بسبب وجود بعض الأفعال كالدعاء ، وصلة الأرحام ، وبرّ الأقارب ، جاء في الصحيحين كما تقدم عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ : « من سرّه أن يبسط له في رزقه ، ويُنْسَأ له في أثره ، فليصل رحمه » .

ومما يتغير : إتباع الحسنات للسيئات ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] .

ويؤيده قوله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[(١)] .

ومما يتغير : محو الذنوب والمعاصي ، وتبديلها إلى حسنات ، وليس هذا غريباً على فضل الله ورحمته .

قال عكرمة : يمحو الله ما يشاء بالتوبة جميع الذنوب ، ويبدِّل الذنوب حسنات ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن ، من حديث أبي ذر جندُب بن جنادة ، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما .

والخلاصة : عقيدتنا أنه لا تبديل لقضاء الله تعالى وقدره الأزلي في علم الله تعالى ، والمحو والتغيير يأتي في بعض التفاصيل ، مما أوحى الله به إلى ملائكته من فعل أو ترك . وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء . والقضاء والقدر منه ما يكون واقعاً محتوماً ، وهو الثابت الدائم كما تقدم .

ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب ، وهو الممحو . ويكون المحو إما بالدعاء أو بصلة الرحم وبرّ الأقارب ، أو بالذنب المقترف . ويشمل المحو نسخ الشرائع ، فقد تنسخ شريعة بأخرى ، كالنسخ بالقرآن لما عداه أو تقدمه ، لمصلحة وحكمة تقتضيها الأحوال . وقد تنسخ بعض الأحكام الشرعية الجزئية ، كنسخ التوجه إلى بيت المقدس ، وتحويل القبلة إلى الكعبة ، ونسخ تقديم الصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ ، ونحو ذلك[١] .

٨٠ـ هل يدفع الدعاء ونحوه القدر؟ :

دل حديث عمر في صحيح مسلم : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » كما ذكر النووي في شرحه الأربعين النووية[٢] : على أن الإيمان بالقدر واجب ، وعلى ترك الخوض في الأمور ، وعلى وجوب الرضا بالقضاء والقدر .

وقد يرد الدعاء والصدقة وصلة الرحم القَدرَ ، جاء في الحديث : « إن الصدقة وصلة الرحم تدفع ميتة السوء وتقلبه سعادة » وفي الحديث أيضاً : « إن الدعاء والبلاء بين السماء والأرض يقتتلان ، ويدفع الدعاء البلاء قبل أن ينزل » .

---

(١) انظر كتب أصول الفقه ، ومنها كتابنا ٢/ ٩٢٩ـ٩٩٨ .

(٢) ص١٥ـ١٧ .

وتقدمت روايات للحديث مثل : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر . . »[١] ومثل : « إن الدعاء ينفع مما نزل ؛ ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء »[٢] .

وهذا دليل على فضل الله وتوفيقه ورحمته : وهو أنه يفتح باب الأمل بالتوبة والدعاء ونحوها ، لمصارعة الأقدار وتخطيها ، لأنه كما ثبت في الأحاديث : قال الله تعالى : « سبقت رحمتي غضبي »[٣] .

والإيمان بالقدر يبدد الخوف ، ويمنح النفس الثقة والطمأنينة وحسن الظن بالله ، دخل رجل على الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، فقال له : عظني ، فقال له : إن كان الله تعالى قد تكفل بالرزق ، فاهتمامك لماذا؟ وإن كان الخُلْف على الله حقاً ، فالبخل لماذا؟ وإن كانت الجنة حقاً فالراحة لماذا؟ وإن كانت النار حقاً فالمعصية لماذا؟ وإن كان سؤال منكر ونكير حقاً ، فالأنس لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية ، فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقاً فالجَمْع لماذا؟ وإن كان كل شي بقضاء وقدر ، فالخوف لماذا؟ .

ثم أورد الإمام النووي رحمه الله فائدة عقب شرح حديث أصول الإيمان ، وهي : ذكَر صاحب مقامات العلماء أن الدنيا كلها مقسومة على خمسة وعشرين قسماً : خمسة بالقضاء والقدر ، وخمسة بالاجتهاد ، وخمسة منها بالعادة ، وخمسة بالجوهر ، وخمسة بالوراثة .

فالخمسة التي فيها بالقضاء والقدر : فالرزق والولد والأهل والسلطان

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم واللفظ له ، وقد تقدم تخريجه .

(٢) رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والعمر . والخمسة التي بالاجتهاد : فالجنة والنار والعفة والفروسية والكتابة .

والخمسة التي بالعادة : فالأكل والنوم والمشي والنكاح والتغوّط .

والخمسة التي بالجوهر (أي بالخلقة) : فالزهد ، والذكاء ، والبذل ، والجمال ، والهيبة .

والخمسة التي بالوراثة : الخير ، والتواصل ، والسخاء ، والصدق ، والأمانة .

وهذا كله لا ينافي قوله ﷺ : « كل شيء بقضاء وقدر » وإنما معناه أن بعض هذه الأشياء يكون مرتباً على سبب ، وبعضها يكون بغير سبب ، والجميع بقضاء وقدر .

٨١ـ هل نرضى بالقبيح؟ :

الرضا يكون بما هو خير وطاعة وإحسان ، وليس الرضا بما هو شر ومنكر ، فإن الله تعالى لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان ، بل أمرنا أن نكره ذلك ، وندفعه بحسب الإمكان ، كما قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

والله تعالى قد قال : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر : ٧] وقال : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] فكيف يأمرنا ان نرضى لأنفسنا ما لا يرضاه لنا؟! وهو سبحانه جعل ما يكون من الشر محنة لنا وابتلاءً ،

---

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان : ٢٠] وقال تعالى بعد أمره بالقتال : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٤] .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً » .

فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً ، يكون ما يقضى عليه من المصائب خيراً له . وكذلك إذا دعاه الشيطان والهوى لشيء ، فيكون ما يقدّر من الشر إذا نازعه ودافعه ، كما أمره الله ورسوله ، سبباً لما حصل له من البر والتقوى وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات[١] .

٨٢ـ هل يطلب الأنبياء والأولياء رزقاً؟ :

لا مانع من ذلك ، بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسباباً يحصل بها الرزق ، لما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ : « إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه » وكان داود يأكل من كسبه ، وكان يصنع الدروع ، وكان زكريا نجاراً ، وكان إبراهيم الخليل له ماشية كثيرة .

وقال النبي ﷺ : « . . وجعل رزقي تحت ظل رمحي »[٢] أي : من الغنائم الحربية في الجهاد المشروع .

وخيار الأولياء المتوكلين : المهاجرون والأنصار ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأولياء المتوكلين ، بعد الأنبياء ، كان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها ، كان الصدّيق تاجراً ، وكان يأخذ ما يحصل

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى ٨/ ٥٤٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ٨/ ٥٣٧ وما بعدها .

له من المغنم ، ولما ولّي الخلافة ، جعل له من بيت المال ، كل يوم درهمان ، وقد أخرج ماله كله ، وقال له النبي ﷺ : « ما تركت لأهلك؟ قال : تركت لهم الله ورسوله » ومع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئاً لا صدقة ولا فتوحاً ولا نذراً ، بل إنما كان يعيش من كسبه[١] .

وأما ما نقل عن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار من قوله : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » فكلام باطل ، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء ، من دعائهم لله ومسألتهم إياه ، وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة ، كقولهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة لله ، مشروعة بأسباب كما يقدره بها ، فكيف يكون مجرد العلم مسقطاً لما خلقه وأمر به؟! .

وإنما الذي صح عن إبراهيم عليه السلام ما ذكر في صحيح البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال حين ألقي في النار : حسبنا الله ونعم الوكيل[٢] .

٨٣ـ كيف يدفع عن الإنسان ما لم يَقْدِر عليه؟ :

لكل إنسان ملائكة يتعاقبون عليه في الليل والنهار ، يحفظونه بأمر الله تعالى ، ويذودون عنه ألوان الأذى والضرر ، كحجب الأذى عن البصر ، ومنع الأضرار ، وتجنيبه الشرور ، من حيث لا يدري ، لطفاً من الله تعالى ورحمة ، لقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ

(١) المرجع السابق ٨/ ٥٣٧ وما بعدها .
(٢) المرجع نفسه ص٥٣٩ .

﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] أي للملائكة الحفظة وظائف ، منها : حفظ الإنسان في الليل والنهار من المضار والحوادث ، بإذن الله وأمره ورعايته ، وحفظ الأعمال من خير أو شر ، يقوم به ملائكة آخرون ، اثنان عن اليمين والشمال . وقوله سبحانه في أهل الاستقامة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣٢] أي إن الملائكة تتنزل على أهل الاستقامة لإزالة الخوف عنهم في مواطن ثلاثة : عند الموت وفي القبر وعند البعث ، ونحن أعوانكم في شؤونكم ، نحفظكم ونوفقكم لما فيه الخير ، ونلهمكم الرشد والحق ، وكذلك نكون معكم في الآخرة ، نؤنسكم من وحشة القبر ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط ، ونوصلكم إلى جنات النعيم .

والله حضَّنا على دعائه لكشف الضر عنا ، فقال : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] وقال النبي ﷺ : « سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج »[1] .

٨٤ـ هل ينفع حذر من قدر؟ :

المؤمن مطالب بالأخذ بالأسباب ، والاحتياط وأخذ الحذر في كل شيء ، حتى لا يتهم بالغفلة والطيش وقلة الوعي ، وأدلة ذلك كثيرة ،

---

(١) رواه الترمذي وابن أبي الدنيا ، عن ابن مسعود رضي الله عنه (الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨٢) .

منها قول الله تعالى في القتال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] وفي صلاة الخوف : ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ [النساء : ١٠٢] .

وفي القضايا العامة كالإنفاق في سبيل الله (الجهاد) قال تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وورد في بعض الروايات : « لا ينفع حذر من قدر ، والدعاء ينفع ما لم ينزل القضاء ، وإن البلاء والدعاء ليلتقيان بين السماء والأرض ، فيعتلجان إلى يوم القيامة »(١) .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا ينفع حذر من قدر ، والدعاء ينفع ، أحسبه قال : ما لم ينزل القدر ، وإن الدعاء ليلقى البلاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة »(٢) .

٨٥ـ ما فائدة الإيمان بالقدر في الآخرة؟ :

تميز تشريع الإسلام بإفاضة الفيوضات الإلهية والمكارم الربانية على المؤمن بسبب إيمانه بالقدر ، حيث يحقق الشكر على النعمة ، فتزداد ، والصبر على النقمة ، فيأتي الأجر والثواب ، ولا يكون ذلك لغير المؤمن .

---

(١) رواه من حديث أبي هريرة : البزار ، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد : ٢٠٩/٧) : وفيه إبراهيم بن خيثم ، وهو متروك .

(٢) رواه البزار ، وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح المصري ، وضعفه الجمهور . (المرجع السابق) .

ورد في ذلك أحاديث نبوية ثابتة ، منها :

ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله سبحانه للمؤمن : إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة ، حمد ربه وصبر ، يؤجر في كل شيء »[١] .

ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت للمؤمن ، إن الله تعالى لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً »[٢] .

ـ وعن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »[٣] .

٨٦ـ هل صحيح أن الله لم يحرم شيئاً ، إلا علم أن بعض الناس يعمله؟ :

الشريعة الإلهية تشتمل على الحلال والحرام ، وقدَّر الله وجودهما ، أي خلْقهما وإيجادهما ، والله تعالى كما أنه يعلم فعل الناس للحلال فيحله ، كذلك يعلم أن بعض الناس يعمل الحرام ، ومع ذلك يحرمه ، بدليل الحديث التالي :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم

---

(١) رواه أحمد بأسانيد ، ورجالها كلها رجال الصحيح (المرجع والمكان السابق) .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه ، إلا أنه قال : تبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : فذكره ، ورجال السند ثقات (المرجع نفسه) .

(٣) رواه أحمد ومسلم .

مُطلع[١] ، ألا وإني آخذ بحُجَزكم[٢] أن تهافتوا في النار كتهافت الفَراش أو الذباب »[٣] .

٨٧ـ ما معنى قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؟ :

المشهور عند أكثر المفسرين : أن هذه الآية ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال : ١٧] نزلت في رمي النبي ﷺ يوم بدر القبضة من حصباء الوادي ، حين قال للمشركين : شاهت الوجوه ، ورماهم بتلك القبضة ، فلم تبق عين مشرك إلا دخلها منها شيء .

والمعنى : أيها المؤمنون إن افتخرتم بقتل المشركين يوم بدر ، فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم وعُدّتكم ، ولكن الله قتلهم بأيديكم ، لأنه هو الذي أنزل الملائكة ، وألقى الرعب في قلوبهم ، وشاء النصر والظفر ، وقوّى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع ، كما قال تعالى : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١٤] أي إن الفاعل الحقيقي أو الفعال بإيصال الرمي إليهم ، ليقهر الكافرين : إنما هو الله تعالى . وهذا شأن جميع الأسباب التي يتعاطاها الإنسان من أكل وشرب واجتهاد ودراسة ونحو ذلك ، هي أسباب في الظاهر ، ولكنّ محقِّق النتائج : إنما هو الله تعالى ، من شبع وإطفاء ظمأ ، وتوفيق لاستنباط حكم شرعي سديد ، ونجاح وغير ذلك .

---

(١) اطلع الأمر وعليه : أتاه .

(٢) جمع حجزة وهي معقد الإزار .

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى ، وقال : « الفراش أو الذباب أو الحنظب » : ذكر الخنافس والجراد . وفيه المسعودي ، وقد اختلط .

فلا يصح الاستدلال بهذه الآية عند بعض الصوفية ونحوهم من العوام على أن الإنسان مجبر ، وأنه لا يملك في الحقيقة شيئاً ، وأنه ليس إلا ريشة في مهب الهواء ، فهو مسير في كل شؤونه وأعماله من الله تعالى ، وهذا غير سديد .

٨٨ ـ هل العبرة في النجاة بخواتيم الأعمال؟ :

هذا هو الحق ، وهو الذي يتطابق مع القدر ومع علم الله تعالى ، وقد سبقت الإشارة إليه ، من خلال حديث الصحيحين عن ابن مسعود : « فوالله الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكونَ بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

وفي هذا المعنى وردت أحاديث كثيرة تدل على هذه الحقيقة : وهي أن العبرة في النجاة بين يدي الله تعالى بما ختم به خاتمة الإنسان من عمل أو نية أو توبة ونحو ذلك ، ومنها في تقرير الأعمال بالخواتيم :

ـ ما رواه أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد ، حتى تنظروا بماذا يختم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره ، أو برهة[1] من دهره ، بعمل صالح ، ولو مات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول ليعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيِّئ ، لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا أراد الله تبارك وتعالى بعبد خيراً ، استعمله قبل موته ، قالوا :

---

(١) البُرْهة والبَرْهة : قطعة من الزمان طويلة ، أو الزمن الطويل . ويستعمله بعضهم بمعنى المدة القصيرة ، وهو غلط .

يا رسول الله ، وكيف يستعمله؟ قال : يوفقه لعمل صالح ، ثم يقبضه عليه »[١] .

ـ وما روته عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، وإنه لمكتوب في الكتاب من أهل الجنة ، فإذا كان قبل موته ، تحوّل فعمل عمل أهل الجنة ، فمات ، فدخلها »[٢] .

٨٩ـ ما علامة خاتمة الخير؟ :

الختم بالخير : يكون بتوفيق ، وإرشاد ودلالة من الله تعالى ، لمسح آثار الماضي ، وتوجه نحو وجهة أفضل ، وتوبة عن السيئات وقبولها ، وعلامة الخاتمة الحسنة : ممارسة عمل صالح قبل الموت ، يرضى به الله تعالى ، بدليل ما روي عن عمرو بن الحمَق الخزاعي : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بعبد خيراً ، استعمله قبل موته ، قيل : وما استعمله؟ قال : يُفْتَح له عمل صالح بين يدي موته ، حتى يرضى عنه من حوله »[٣] .

وعن جبير بن نُفَير أن عمر حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً ، استعمله قبل موته ، فسأله رجل من القوم : ما استعمله؟ قال : يهديه الله تبارك وتعالى إلى العمل الصالح قبل موته ، ثم يقبضه عليه »[٤] .

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى بأسانيد ، وبعض أسانيدهما رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط والكبير ، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح .

(٤) رواه أحمد ، وفيه بقية ، وقد صرح بالسماع ، وباقي رجاله ثقات (مجمع الزوائد =

٩٠ـ ما حكم من لم تبلغه الدعوة الإسلامية؟ :

من لم تبلغه الدعوة الإسلامية ، ولم يسمع عنها شيئاً ، كمن مات في عهد الفترة[١] الجاهلية (ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم) ومن نشأ في جزيرة أو بقعة ، ولم يدر شيئاً عن دعوة الإسلام أو القرآن أو النبي محمد ﷺ ، بسبب الحواجز واللغة والنشأة الخاصة ، هؤلاء وأمثالهم يرجى لهم من الله النجاة ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] وهذا من عدل الله ورحمته وإحسانه وفضله : أنه لا يعذِّب إلا بعد إنذار ، ولا يحاسب إلا بعد بيان .

ولما ثبت في السنة النبوية ، منها حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه : أن نبي الله ﷺ قال : « أربعة يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة . فأما الأصم فيقول : لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : يا رب ، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني[٢] بالبعر . وأما الهرم : فيقول : يا رب ، لقد جاء الإسلام ، وما أعقل شيئاً . وأما الذي مات في فترة فيقول : ما أتاني لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنَّه ، فيرسل إليهم : أن ادخلوا النار ، فوالذي نفسي بيده ، لو دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً »[٣] .

= ٧/ ٢١٤) .

(١) أي فترة انقطاع الرسل الكرام .

(٢) يرمونني .

(٣) رواه أحمد والبزار ، إلا أنه قال : « يعرض على الله الأصم الذي لا يسمع شيئاً ، والأحمق ، والهرم ، ورجل مات في الفترة » . رواه الطبراني بنحوه (مجمع الزوائد ٧/ ٢١٥ـ٢١٦) .

٩١ـ هل يقال : الحسنة من الله والسيئة من العبد؟ :

كلٌّ من الحسنة والسيئة من عند الله تعالى خلقاً وإيجاداً . والحسنة هي النعمة : من نصر وعافية ورزق ، فمن جاءته فهي نعمة أنعم الله بها عليه . والسيئة : هي المصيبة من فقر وذل وخوف ومرض وغير ذلك .

ولكن الأدب يقضي بنسبة الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى العبد نفسه . وحقيقة الأمر : أن السيئة أو المصيبة بسبب فعل الإنسان ، فإذا ساء فعله ، تعرض للمصاب في الدنيا ، لعله ينزجر ويرعوي ويستقيم ، فتكون المصيبة خيراً له ، وذلك يجعل القدر خيراً وأنه لا شرَّ فيه كما تقدم ، وأدلة هذا ما يأتي :

قول الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وقوله سبحانه :

﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

وقوله عز وجل :

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

فالإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه وخطاياه ، كان هو الظالم لنفسه . قال أحد الصالحين : « إني لأعرف سوء عملي بسوء خلق حماري » . فإن تاب الإنسان واستغفر ، جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

والذنوب مثل أكل السُّم ، فهو إذا أكل السم مرض أو مات ، فهو

الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت ، والله خالق ذلك كله . وإنما مرض بسبب أكله ، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم . فإن شرب الترياق النافع عافاه الله ، فالذنوب كأكل السُّم . والترياق النافع كالتوبة النافعة . والعبد فقير إلى الله تعالى في كل حال ، فهو بفضله ورحمته يلهمه التوبة . فإذا تاب تاب عليه . فإذا سأله العبد ودعاه ، استجاب دعاءه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1] [البقرة : ١٨٦] .

ومن قال : لا مشيئة للإنسان في الخير ولا في الشر فقد كذب . ومن قال : إنه يشاء شيئاً من الخير أو الشر دون مشيئة الله فقد كذب ، بل له مشيئة لكل ما يفعله باختياره من خير وشر ، وكل ذلك إنما يكون بمشيئة الله وقدرته ، فلا بد من الإيمان بهذا وهذا ، ليحصل الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد ، والإيمان بالقدر خيره وشره .

ومن احتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة ، ومن اعتذر به ، فعذره غير مقبول . بل هؤلاء الضالون ، كما قال فيهم بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري ، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأما المؤمن : فهو على العكس من ذلك ، إذا آذاه الناس ، نظر إلى القدر ، فصبر واحتسب ، وإذا أساء هو تاب واستغفر ، كما قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [غافر : ٥٥] فالمؤمن يصبر على المصائب ، ويستغفر من الذنوب والمعايب ، والمنافق على العكس لا يستغفر من ذنبه ، بل يحتج بالقدر ، ولا يصبر على ما أصابه ، فلهذا

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٢٣٩ـ٢٤٠ .

يكون شقياً في الدنيا والآخرة ، والمؤمن سعيداً في الدنيا والآخرة ، والله سبحانه أعلم[١] .

هذا ، ويلاحظ أن الجواب على السؤال الأخير يصلح خاتمة أو خلاصة لجميع البحث المذكور .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتعرف معاني الأقدار .

* * *

(١) المرجع السابق ٨/ ٢٤٠ـ٢٤١ .